تحولات

الكتاب الأول

ناصر يوسف منصور

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – حي خانزاد – اربيل– كُردستان العراق

ص.ب رقم: ١

www.araspublisher.com

تحولات

ناصر يوسف منصور

اسم الكتاب: تحولات – الكتاب الأول
تأليف: ناصر يوسف منصور
من منشورات ئاراس رقم: ١٢٧
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: رزگار نامق
تصحيح: خالد بكر أيوب
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية – اربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٢/١٤٠

ليست مقدمات

(١)

الأستاذ ناصر يوسف منصور رجل متعدد الجوانب فهو ناقد أدبي وناقد فني وكاتب، وفي كتاباته يمزج الأدب بالفن والفلسفة. في زيارته الأخيرة لأربيل التقينا كثيراً وتحدثنا طويلاً وعلمت منه أنه ينوي أن يجمع بعض مقالاته على شكل كتاب، ومنها المقالات التي كتبها بعنوان «تحولات».

فأقترحت عليه أن أكتب مقدمة للتحولات. التحول قانون من قوانين الحياة والتحول غير التغير فالتغير قد يكون يومياً بطيئاً وربما لايشعر به الإنسان الآن، أما التحول فيكون حاسماً فاصلاً بين زمنين. زمن ماقبل التحول وزمن مابعد التحول. والتحول لايأتي من فراغ بل لابد من تراكمات فكرية وتجارب حياة يأتي بعدها التحول فيكون التحول في التفكير وأسلوب الحياة والفهم والربط، ربط الأشياء، ربط القريب بالبعيد والزائل بالخالد، فإعتزال المعري في بيته لأكثر من أربعين عاماً بعد عودته من بغداد كان تحولاً حاسماً في حياته ونهجاً جديداً في العيش وكما كان إنصرافه عن نظم الشعر التقليدي بأغراضه المتعددة، المدح، الرثاء، الهجاء... الخ الى اللزوميات (لزوم ما لايلزم) والتزامه حرفين أو أكثر بدلاً من الحرف الواحد في القافية وإنصرافه عن الأغراض القديمة الى الحكمة والنقد والرفض ومحاكمة الأشياء والخوض في مسائل الموت والحياة والأبد والأزل، كان تحولاً حاسماً في عالمه الفني والأدبي. ونفس الشيء حدث لتولستوي عندما ثار على أوضاعه الخاصة وأراد أن يهجر بيته ويتنازل عن قسم كبير من أملاكه لصالح الفلاحين والفقراء بل ويعيش عيشة الفقراء. وهذا التحول أو هذه التحولات تحدث في حياة

الكثيرين الذين هم في طريق الفكر بعد محاكمات عقلية للأشياء والأحداث ومراجعة النفس.

والأستاذ ناصر منصور يشير بقوة الى هذه المعاني والتحولات وكنموذج أقتبس فقرات من التحولات:

لكن بعد سنوات طوال ثقال أدركت
أن العالم هو نفسه أينما كنت
وأنّ الحياة تمنحك نفسها
أينما كنت، وأنّى شئت
وان الحكمة قرينة العذاب
ولاأزعم هنا أن الفرح لايولّد الحكمة
إلا أن حكمة الفرح هي أكثر هشاشة
وأقل ثباتاً... بينما حكمة العذاب
هي الأكثر أصالة وصلابة...

ويستمر ناصر منصور:

فقد تعني الحكمة إكتشاف الجمال
والروعة في الحياة. وقد تعني الحياة...
وقد لاأعرف ماذا تعني وهذا أهم...

وفي مكان آخر يقول:

بالأمس كنا شعراء ليس في النظم،
بل في النظر الى الحياة،
كنا شعراء لأننا كنّا نعرف العنصر الثابت المتكرر،
ونفهم العناصر المتغيرة.
كنا شعراء لأننا كنا قد إكتشفنا أن العالم لم
يعد منقسماً الى أقوياء وضعفاء،

بعد أن إكتشفنا ضعف الأقوياء
وقوة الضعفاء. كنا أقوياء لأننا
كنا نعرف الإيقاع. ونفهم قوة الأشياء...

في قليل من الكتابات نجد مثل هذه الغزارة في الأفكار وهذه الأصالة وهذا العمق. ولاريب هذه الأفكار لم تهبط عليه مجاناً وإنما دفع ثمنها من وقته وجهده والفرص التي ضاعت عليه. وكما يقول هو في فقرة من التحولات: تعلمت أن الحياة إذ تمنحك شيئاً. فإنها تتقاضى ثمنه بشكل أو آخر. وأنها إذ تمنح بيد فإنها تسلب باليد الأخرى...

زيوهر خطاب

(٢)

إذا أردت أن تقرأ دون أن تقرأ، فاتخذ من الأستاذ ناصر يوسف منصور صديقاً حميماً لك... لاأقول هذا من باب الطرافة حسب بل أن جانباً كبيراً من الحقيقة المستمدة من خبرتي الشخصية مع ناصر يوسف منصور الممتدة إلى أكثر من ثلاثين سنة مضت، تستقر وراء عبارتي هذه، ذلك أن ناصر منصور قاريء جيد جاد يتعامل مع النص المقروء تعاملاً هادئاً عميقاً، وهو على ما أعتقد يتبع أسلوباً إستيعابياً تأملياً... يتأمل العبارة ثم يتمثلها باحثاً عن قعرها محلقاً نحو سمتها وبعد الجولة العمودية في نخاع العبارة يجول جولة ثانية أفقية محاولاً ربطها بإطارها العام، أو باحثاً عن سبيل المقارنة بين فكرة العبارة وما سبقها سواء في ذات النص أم في قراءات سابقة، مسبراً بشكل يكاد أن يكون غير مقصود، أوجه التماثل والتضاد بين الكاتب والكاتب نفسه وبين الكاتب وسواه من الكتاب...

إنها قراءة معقدة مركبة ومتطورة كما تتراءى لي، ولعلها لاتتأتى بسهولة لكل واحد بالشاكلة التي تأتّت للسيد ناصر منصور.

ولكن لابد من أن اعترف أن القراءة «الحقيقية» يجب أن تكون على هذه الشاكلة، فهي الوقود الحقيقي للجدل الثقافي الجاد وليس (حوار الطرشان) لأن هناك عادة أكثر من خطاب مرفوع في تظاهرة العقل البشري.

إن ناصر منصور لايبخل عليك بما قرأ. فهو رجل يهوى حديث الفكر... يتمتع بذاكرة فذة في كل ما قرأ... يحدثك عن فكرة جاءت في كتاب كان قد قرأه قبل أربعة عقود مرت، يستفزك ببساطة مفجراً قنبلة بدم بارد ودون تعمد. يأسرك بذاكرته هذه ثم يحيلك الى مستمع جيد شئت أم أبيت لتجد نفسك من بعد، وقد قرأت كتاباً أو أكثر دون أن تقرأ شيئاً

ولكنك أضفت الى رصيدك القرائي شيئاً لاريب.

لايتعبه الحديث في الفكر ويتأنى في صياغة عباراته حتى لتشعر أن حديثه يصلح لأن يذهب إلى المطبعة مباشرة... دقيق في إختيار مفرداته، حذر في إعتماد مصطلحاته، يمتلك قدرة رائعة في الربط بين الفكر المتعددة الصانعة لصلب الموضوع بلوغاً الى غايته .

من خلال خبرتي مع ناصر منصور وجدته كلما إزداد قراءة عاماً بعد عام كلما غدا أكثر حذراً من (مغامرة) الكتابة. وهذا هو السر في أن يكون ناصر منصور مقلاً جداً الى درجة حنقي عليه أحياناً، في الوقت الذي كنت ولم أزل من ناحية أخرى أجلّ هذا الحذر النبيل فيه والمتأتي دون شك من المكانة السامية للكتاب لدى ناصر منصور.

أقول أجلّ هذا الحذر أمام سيل التهافت على النشر وإضافة عنوان جديد لقائمة المؤلفات عند بعض الكتاب.

إن مدى إحترام هذا الرجل للقاريء جعله لايطرق أبواب دور النشر بسهولة.

والمرء يقرأ في (تحولات) ناصر منصور يتراءى له أكثر من مثير يبعث في النفس رغبة الجدال، فهو يضرم حريقاً هنا وآخر هناك. تكتشفه بسهولة لتجد – كما قلت – قبلاً، أنك أمام قاريء جيد جاد، إمتلك شرعية الحوار عن جدارة وهو يسبح في المياه العميقة باحثاً في تحولاته تلك عن الإنسان... الحرية... الفكر... لماذا؟ كيف؟ وهو لاينسى نفسه في ذات الوقت... نعم، إنه يبحث عن نفسه في هذا اللج العميق من التمثل الفكري للمقروء مثلما يبحث عنك.

إن تحولات ناصر منصور – كما أراها – لاتعني نقلات بالمعنى التقليدي والمنتظر من المدلول اللغوي لمفردة – تحولات – فهي ليست مغادرة موقف أو إستبدال إتجاه بآخر قدرما هي مداهمات تعرض لها ناصر منصور في مسيرة قراءته الطويلة... هذه المداهمات كانت تنط من

بين صفحات هذا الكتاب أو ذاك. إنها الجزر التي إكتشفها فاستوقفته ليضع الكتاب جانباً... إنها الفكرة غير المتوقعة التي تطرحه أرضاً فيلبث مشدوهاً بها، ثم يلملم نفسه متهيئاً لاستيعابها وتمثلها، بعد حالة من التأمل العميق، فمن سمات المداهمة الفكرية عظم المفاجأة... وهو بحاجة لأن يعيد حساباته من جديد بعد كل مفاجأة حتى يتهيأ لتمثل الفكرة (المداهمة) فيعقد معها إتفاقاً جديداً ولنقل عرساً جديداً، وليواصل من بعد حتى تصعقه مداهمة أخرى جديدة، تستوقفه من جديد.

يبدو أن حالة المداهمة هذه كانت قادرة أن تحث ناصر منصور دوماً لأن يعيد التفكير في معادلاته الفكرية في ضوء المستجد. وكل مداهمة (تحولية) كانت تمنحه زخماً نقدياً وطاقة مضافة لسير أمضى ورؤى أنقى وأوسع.

كم تذكرني تحولاته بحالات (التجلي) التي تنتاب الصوفي الباحث عن المعرفة عندما تكشف له الحبيبة (الله) جزءً من خدرها (الحقيقة) عبر سحرها... هكذا أراها تحولات ناصر منصور بعد أن أصبحت القراءة لديه ديانة أخرى يبحث من خلالها عن حقيقة الحقيقة...

لقد ذكرت في البداية أن تحولات ناصر منصور لاتعني المغادرة. نعم فهو لايريد أن يقول – حسب فهمي له – أنه غادر الموقف الفلاني وتبنى الموقف الفلاني... أبداً. إنّ ناصر منصور يبقى حاملاً لأفكاره. ولكن تحولاته التي حاولنا أن نضع تفسيراً لها قد طورت منه ضمن إطار فكره العام. وذلك بسبب وقوفه على ما قد تطور ضمن السياق الفكري الذي يتبناه ناصر منصور وهذا يعني من وجهة نظري، كسراً للجمود ومرونة وإستعداداً في التفاعل والتعامل مع الفكر بأسلوب حداثوي تمليه حياة العصر.

ومن هنا ليس لي إلا أن أحيي هذا الأسلوب الحديث في السيد ناصر منصور مثمناً قلمه الشجاع. فقد تحدث ناصر منصور في تحولاته

بصراحة متحدياً نفسه قبل أن يكون متحدياً لأي وجود آخر...

كنت أنوي أن أعرض بعضاً من الأنموذجات الفكرية التي إطلعت عليها في تحولاته لولا أنّي خشيتُ أن أفسد على القارىء متعة إكتشاف تحولات ناصر منصور بنفسه...

وآخر ما أقول أن (تحولات) مفاتيح مركزية لكتاب عظيم.

الدكتور بدرخان السندي

(٣)

عام ١٩٩٠ كان يبدو وكأنّ كل شيء ينهار، النظم والأفكار والنظريات، والآمال – حتى الآمال:

وبدأت رحلة التحولات...

بدا، بالنسبة للبعض، أنّ كل شيء بعد أن مات الله، على حد تصوير ديستوفسكي البليغ، بات جائزاً وأنه لم يعد ثمة معنى لأي شيء، فإنفتح شدقا العدمية مثل ثلمتي قبر.

وإنكفأ آخرون الى الداخل، الى الذات المقتلعة من محيطها، من الخارج وحركته الضاجّة، يستنبطونها الحلول، فما كانوا سوى أن يزدادوا حلولاً في الذات حتى باتت الذات المنكفئة على ذاتها هي الحل وهي الحال...

وتراجع آخرون الى حلول جربتها البشرية وتجاوزتها، لكنها إكتسبت، في لحظة إنعدام الأفق، بعض الوهج والبريق الزائفين، الكاذبين، ذلك أنه ما أن يفقد المرء القدرة على التطلع الى الأمام حتى يرتد ببصره الى الوراء، أو يصاب بالعمى...

ويحار المرء أيهما أفدح، إذ كلاهما سيان...

آخرون، بينهم ناصر يوسف منصور، بدأوا الجهاد الأكبر، كما وصفه الحديث الشريف، جهاد الذات وما أشقه من جهاد.

ليس ليقتلعوها من تربتها، بل لتمتد جذوراً في الأرض، وترسخ...

ليس لتنعزل عن الآخر، بل لتزداد إلتصاقاً به وتلاحماً...

لا لتتطلع الى الوراء، بل ليمتد بصرها فتكتشف ما في الأمام من بهاء...

ولتتأنسن! فتؤنسن كل ما حولها، الآلهة والأفكار والنظريات والآمال،

ولتبتدع، من كل ذلك، من الظلام والركام عالماً قادماً لامحالة! ولا أبهى...

كان على ناصر منصور أن يحرك، مثل «لي» الحكيم الصيني في رواية «شتاينبك» الملحمية الهائلة «شرقي عدن»، أن يحرك كل حجر يلتقيه ليرى ما تحته...

وكم من الاحجار، داخله وخارجه، بما فيها أكثرها قداسة، وأشدها التصاقاً به، حركها ناصر منصور في تحولاته...

حاول ومايزال... ولقد قدّر لي أن أكون شاهداً على بعض هذه المحاولات، هذه التحولات. ولكم كان هذا شاقاً عليه، إلا أن صدقه، وهو – أي الصدق – جوهر الفن، وأمانته للحقيقة، قاداه الى تجاوز الاحجار، الى الإرتفاع فوقها، والإطلال على العالم الأرحب...

وكم كان سعيداً أن يكتشف، أن يتأكد لديه بالأحرى، أن الصدق مرادف للجمال، في الفن، وفي الحياة أيضاً...

ولكم كنا سعداء له، ومعه...

ذلك أنه سعيد من لايقف أي حجر، بما في ذلك ذاته، بل خصوصاً ذاته، في طريقه الى النبع...

★★★

ندر أن إجتمع لناقد جزالة اللغة وسلاسة الأسلوب فضلاً عن الأدوات المعرفية، بحيث يتحول العمل النقدي لديه، أعني لدى ناصر منصور، الناقد والشخصية الإجتماعية المعروفة، بحيث يتحول النص النقدي بين يديه أتفقت معه أو إختلفت، الى نص جمالي آخر هو متعة للعقل والروح في آن.

لكن ناصر منصور يتحول في تحولاته من نقد النص إلى نقد الحياة ونقد الذات المتحولة ويحدث عن إنعكاس ذلك في وجدان مثقف.

فالتحولات هي، بهذا المعنى، شهادة على العصر، بقدر ما هي شهادة

على الذات الباحثة، عبثاً عن يقين نهائي، ذلك أنه ليس ثمة يقين غير «التحولات».

خوفنا منها، قلقنا بسببها، فرحنا بها، وتحولنا، إن إستطعنا معها، وإقتناصنا، في كل الأحوال، للدهشة، ذلك أن الدهشة فعل إكتشاف، والإكتشاف هو الخطوة الأولى نحو التحول.

سعيد من يمتلك القدرة على الدهشة والتحول، وناصر منصور هو من هذا الطراز، إنساناً وكاتباً...

ابراهيم الحريري

رفقة

ما آمنت يوماً بالمقدمات.

الكتاب هو الذي يقدم نفسه دون مقدمات.

لكن الأعزاء زيوهر خطاب، بدرخان السندي، إبراهيم الحريري إضافة إلى آخرين رافقوني في تحولات الحياة...

فأردت رفقتهم في (تحولات)...

ناصر يوسف منصور

عالم بلا لائحة حقوق الإنسان

شكل الإنسان تجمعاته الأولى لزيادة قدرته في مواجهة قوى الطبيعة في صراعه من اجل البقاء. وفي تلك التشكيلات الإجتماعية البدائية ظهرت أولى الفوارق بين الناس: الأقوياء والضعفاء. وقد تطورت طبيعة تلك التجمعات وتركيبة العلاقات فيها بموجب الأهداف والغايات الجديدة المتنامية التي تبنتها وأرادت تحقيقها، فتغيرت تبعاً لذلك العلاقات القائمة فيها وتعاظم حجم الفوارق وحدّتها نظراً لزيادة متطلبات التشكيلات الإجتماعية وما ترتب عليها من زيادة قدرات الأفراد في الأداء والعمل لتحقيق تلك المتطلبات.

وبالتصاعد اللاحق لسيرورة التطور الإجتماعي اختلفت قدرات الناس وتباينت إمكانياتهم وتضاربت مصالحهم وتعمقت نتيجة لذلك الفروق الإجتماعية والامتيازات المبنية عليها وصولاً الى صيغ الحاكم والمحكوم. ثمة شخص أو فئة متنفذة تتحكم بمقدرات ومصائر الأكثرية المحكومة.

ومع تفاوت طبيعة الحكم والحاكم بين مرن معتدل وتعسفي مطلق ظلت الأكثرية الساحقة من الناس تعيش خاضعة مقهورة مسلوبة الإرادة. وباستمرار هذه الأوضاع واشتدادها على مر التاريخ ازداد بؤس الناس وتفاقمت عذاباتهم، الأمر الذي اضطرهم إلى الاحتجاج عليها ورفضها بين الحين والآخر، هنا وهناك... بعد ان خسروا كل شيء ولم يبق لديهم ما يخسرونه اثر اتساع الهوة بين من يملكون المال والسلطة والقوة وبين من لايملكونها. فشهد التاريخ الإنساني انتفاضات وثورات كثيرة لإعادة التوازن وتحقيق العدل، أريقت فيها دماء غزيرة الا أنها أجهضت وقمعت بعنف أقوى وقسوة اكبر ودماء اغزر. وحتى الأديان، التي عرفها الإنسان وإلتجأ إليها بحثاً عن العزاء والخلاص، بعد ان اقتنع بمبادئها السمحة التي تدعو الى العدل والمساواة والتآخي، شهدت فترات عصيبة

اضطهد فيها الناس وقمعوا باسم الدين بعد ان تحول الى سلطة ومؤسسات خدمة لمنافع ضيقة وأغراض شخصية.

وفي مسيرة الصراع المضني الطويل مع القدر ظل البؤس والألم والشقاء يلاحق الإنسان صانع الملاحم ومبدع الحكايات والأساطير: منذ ان سرق "بروميثيوس" النار من جبل الآلهة ليهديها الى الإنسان، فحلت به لعنتها، ومنذ ان تحدى گلگامش الموت، وظل سيزيف يحمل صخرته الى القمة والى الأبد وصارع (يوليسيس) قوى الفناء رافضاً الخلود في خانة الآلهة. كما رفض "اوديب" الاستسلام لقدره، وقاد "سانتياگو" شيخ همنگواي، الهيكل الخاوي لسمكته العملاقة الى الشاطيء".

يبقى التحدي الأكبر للإنسان متمثلاً في السؤال: هل كانت كل تلك المصاعب والمنازعات والاقتتال والحروب والمجازر والمآسي وحربين عالميتين مدمرتين، ضرورية ليعرف الإنسان حقوقه الأساسية ومن ثم يثبتها في لائحة تصدر عن منظمة الأمم المتحدة في١٠ كانون الأول ١٩٤٨؟ وقد يقود هذا إلى التساؤل عن مدى فاعلية هذه الحقوق في أرجاء المعمورة بعد ان استغرق معرفتها والإعلان عنها كل تلك القرون من الظلم والشقاء؟

وبعد فهل يحق للإنسان، بعد كل هذا، أن يحلم بعالم تصبح فيه حقوقه الأساسية أمراً طبيعياً وجزءً من ممارسة حياتية يومية وتنتفي الحاجة إلى لائحة تثبت فيها (حقوق الإنسان)؟.

اصمتوا الآن

اصمتوا..

لأصغي إلى قلبي

أأقول: هنا يبدأ تاريخ... وهنا تاريخ الموت يموت؟

اكتب يا عبد الله على الموجة تاريخك.

قال: فماذا اكتب؟ هل اكتب عن نفسي وأنا العق جرحي؟

هل أكتب عن وطن يقتل؟ هل اكتب عن صوت يصرخ في البرية؟

قال: أكتب اسمك في كل عذاب. ان عذاب الميلاد شديد.

(فاضل العزاوي)

كان سلامة موسى لايترك فرصة تفوته إلا ويؤكد على أهمية الهوايات والاهتمامات ليطور الناس أنفسهم ويرسموا شخصياتهم. في إحدى كتبه ومنذ سنوات طويلة قرأت: "من المؤلم أن نقول: ولد فلان إنساناً ومات تاجراً أو مات نجاراً أو بقالا!" كنت مأخوذاً بهذا الكلام فترة... لكنني أعود أتساءل الآن: هل تكفي تسعة أشهر يعيشها الجنين في رحم الأم ليصبح إنساناً؟ هل تكفي عشرون سنة للقراءة واكتساب المعرفة الإنسانية؟ ثلاثون؟ أربعون؟ هل العمر كله يكفي؟ فقد تقضي عمراً كاملاً بالقراءة واكتساب المعرفة وتكتشف أخيراً أنك تحتاج إلى عمر آخر تكرسه لقراءات جديدة لسد الثغرات وإكمال النواقص وتصحيح الأخطاء. وبعد أن يصرف الإنسان عمره في اكتساب المعرفة ويحس أنه على مشارف الاكتمال والنضج، فما الذي يتبقى له يا ترى؟ ماذا عساه أن يفعل؟ لن يكون حينئذ صالحاً إلا للموت!

عشرات الكتب في علم النفس قرأناها ثم عرفنا أنها كلها تنتمي إلى ما يسمى بعلم النفس البرجوازي وأن الماركسية تفتح الباب واسعاً

لتأسيس علم نفس مستقل يطل على النفس البشرية ويسلط عليها الضوء من زوايا أكثر موضوعية وأن نظريات بافلوف دشنت عهد علم النفس الماركسي المعاصر.

كم من الدراسات النقدية في تقنيات الفن والأدب قرأناها. كم من المعايير الفنية اكتشفناها بالقراءة وذهلنا بها وأصبحت أحكاماً في تقييماتنا للفن والأدب. ثم اكتشفنا أنها تنتمي إلى علم الجمال البرجوازي. وأن هناك نظاماً بديلاً للقيم الجمالية والفنية يوفره لنا الإستاتيك الماركسي.

وقرأنا في علم النفس والإستاتيك الماركسي للتعرف على الإمكانات اللامحدودة للاختلاف والاجتهاد ضمن إطار المنهج الماركسي نفسه. وضمن نفس الحدود أصبحنا قادرين على أن نميز الاجتهادات التي تنتمي إلى المادية المبتذلة والأخرى الساذجة والميكانيكية ثم الجدانوفية الجامدة الأحادية البعد، إلى جانب الاجتهادات الجدلية الخلاقة.

ثم عدنا لنفهم أن الاستهانة بما يسمى بنظريات علم النفس البرجوازي أو علم الاقتصاد البرجوازي وكل ما يمت بصلة إلى البرجوازية، إن الاستهانة بها والقفز من فوقها وتجاهلها هكذا دفعة واحدة إنما يشكل نقصاً كبيراً وخطأ فادحاً أن لم يكن قاتلاً!

هل يمثل كل هذا بؤساً في المعرفة البشرية، أم أنّ ذلك هو غناها الحقيقي؟ أم انه الحلقة المفرغة لمأساة المهزلة البشرية؟

يسرد لنا أندريه مالرو في (لامذكراته) حكاية لقائه بشيخ طاعن في السن قضى عمره بالتبشير في أقاصي الهند والصين فيسأله مالرو: وبعد فما هو رأيك في الإنسان؟ فيجيب المبشر:

الإنسان اتعس بكثير مما يبدو، ولا وجود لبشر كبار!

ألا يلخص هذا كل شيء؟ فمن هم الكبار؟ أي كبير تخلو حياته من صغائر مخجلة؟ أي كبير لايضطرب حد الارتعاش لنيل المجد أو المال أو

امرأة بارعة الجمال؟

وعندما أقول هذا فإنه لايعني بأنني لا أحس بصدق كاتب مثل كوركي عندما استطاع أن يبين بلغة النماذج الفنية من هو بطل العصر في حينه. أو بصدق تشيخوف عندما صور اللابطل (الإنسان العادي) ووضعه في الموقع الأول من قصصه ومسرحياته، فقد خلق تشيخوف مجموعة كاملة من الأبطال (النماذج) اللاأبطال. أقول هذا وأنا أحس الصدق في ما قرأته في أدب اللامعقول ليونسكو وبيكيت وادامو‌ف حيث اختفى المنطق الموضوعي تاركاً السلطان لتحكم اللامنطق أو اللامعقول ليصبح معقولاً ولينقلب المعقول لامعقولاً!

ورغم أن السوريالية في الشعر والتجريد في الفن كانت أيضاً إفرازات النظام الرأسمالي، عبرت عن تفاقم أزماته وجسدت محنة الإنسان الذي يعيش فيه، وتعتبر حالة انكفاء ونكوص إلى الداخل، المهرب الحقيقي الوحيد للإنسان من التشيؤ، بعد استحالة التعامل الإنساني السليم للذات البشرية مع مؤثرات الخارج إذ أطبقت صحراء رصاصية ثقيلة على أنفاس البشر هناك فانقطع التواصل واكتملت القطيعة، إلا أن كل ذلك لم تنقصه الوجاهة بشكل أو بآخر.

إنّ كل فن يحدده عصره، ويمثل الإنسانية بقدر ما يتلاءم مع أفكار ومصالح وحاجات وتطلعات وضع تاريخي خاص. ولكن الفن في الوقت نفسه، يتجاوز هذا الحد ويخلق في لحظته التاريخية أيضاً لحظة إنسانية ووعداً بتطور مستمر.

إنّ العمل الفني تاريخي بمعنى أنه يعكس فترة إنتاجه وعصره، كما أنه أبدي بمعنى أنه يرتبط بما هو جوهري وعام في الإنسان عبر كل العصور.

يقول أرنست فيشر: إنّ طبقات مختلفة وأنظمة إجتماعية متباينة، قد أسهمت في تكوين أخلاقية إنسانية شاملة، من خلال اعدادها أخلاقيتها

الخاصة. أن مفهوم الحرية وإن كان يطابق دائماً ظروف وأهداف طبقة أو نظام إجتماعي إلا أنه يرمي بالتالي إلى أن يتحول إلى فكرة شاملة.

وهكذا فأن ملامح إنسانية ثابتة تتكشف حتى في فن يحدده عصره، وبقدر ما عكس هوميروس، واسخيلوس، وسوفوكليس الظروف البسيطة لمجتمع قائم على العبودية، فإنهم انزووا في عصرهم وفات أوانهم، ولكنهم بقدر ما اكتشفوا عظمة الإنسان في ذلك المجتمع وأعطوا نزعاته ومشاعره شكلاً فنياً، وألمحوا إلى إمكانياته اللامحدودة، فإنهم يظلون معاصرين أبداً.

وبعد، وبعد كل هذا أقول بأني أحس أن الامتناع عن القراءة لفترة ولو كانت طويلة تكرس للتأمل واكتشاف العالم لحسابك الخاص، والتخلص من سطوة أفكار الآخرين يعززها صمت تختاره بإرادتك، تتحرر فيها من المؤثرات الفكرية والفلسفية والأدبية والسياسية برمتها، هي فترة نقاهة ضرورية لكي تتعافى وتقف شامخاً تتنفس هواءً نقياً متحدياً بريق الشموس الغاربة أو المشرقة.

وقد كان لويس أراگون يقول:

أصمتوا الآن،

أصمتوا...

لأصغي إلى قلبي

من رسالة إلى صديق

قد تكون عفويتك التي أحسدك عليها، بالأخص عندما يستعصي علي الاستهلال في الكتابة، إذ أنك تسوق الأمور هكذا على عواهنها كما يقال، هي التي جعلتني أرجيء الكتابة إليك منذ أن وصلت اسطنبول.

الفترة التي مرت على مغادرتي الوطن ليست قصيرة إذا حسبناها كإضافة إلى متوالية الخيبات والمرارات التي رافقت حياتنا فأرهفت أحاسيسنا وزودتنا بالمناعة ومن ثم جعلت مراصدنا التي نسعى بها للاتصال بالعالم أكثر قدرة على الالتقاط والفرز.

لقد أضافت المغامرة التي أخوضها مرغماً الآن، بلاشك معاني جديدة إلى تجربتي رغم أنها في جوانب عديدة عمقت قناعاتي السابقة!، رائعة هي الحياة. وجديرة بالعيش حتى الثمالة. بسيطة هي الحياة. لايفسدها إلا الالتباس أو التعقيد الذي بات يلازمها لاجماً انسيابيتها محدداً عفويتها مخمداً انطلاقتها وتدفقها نتيجة التقدم والتطور وما إلى ذلك، إذ لايرشح منها بالمآل الا الجوهر متمثلاً بالأشياء العادية البسيطة، لكن الضرورية التي يحتاجها المرء لإدامة حياته، كما أن الإنسان، نحن متفقان على ذلك، بائس أكثر بكثير مما يبدو، رغم أنّ هذا البؤس لايبدو جلياً واضحاً في كثير من الأحيان إذ تخفيه أقنعة مختلفة ويتخذ أشكالاً متعددة كثيرة...

حقيقة مهمة واحدة ربما فاتتنا هي: أننا لم نكن بحاجة إلى كل تلك الخيبات والاحباطات وذلك الحرمان والعذاب الذي عشناه لنتوصل الى قناعاتنا التي كنا ولانزال نعتز بها، إذ كان يمكن التوصل إليها عبر حياة أسهل ندفع فيها ثمناً أقل بكثير من الثمن الذي دفعناه...

سنوات طويلة مريرة انسلخت من عمري تتالت فيها الهزائم والإنكسارات بعد أن عشت منهمكاً بجدية تامة في هذا العمل أو ذاك

معطياً إياه أكثر مما يجب دون أن يستنفذني ذلك، مؤجلاً مشاريعي الذاتية الأساسية في الوقت ذاته، حتى باتت الحياة رغم التحامي اللصيق بلحمتها مشروعاً مؤجلاً ينتظر الاكتمال والتحقق، أدركت في محصلتها بأنني وإن لم أحقق ما كنت أريده لأسباب بعضها يعود إلى قصور ذاتي وأكثرها يكمن خارج الذات، وإذ أراني في نهاية المطاف لم أبدع فكراً أو فلسفة، فناً أو أدباً، إلا أن ما فعلته كان بمستوى ذلك إن لم يكن أفضل... لقد أبدعت في صياغة نفسي وإعدادها... وها أنا أحس اليوم بأنني مهيأ لأن أعيش وأحيا هكذا: دون أن أخشى شيئاً أو أطمح في شيء... إنه الاستعداد للحياة على التخوم اللانهائية للحرية...

اسطنبول مدينة سياحية فيها من المقومات والخصائص والأمراض شأنها شأن المدن السياحية الكبرى في العالم. الهوة بين الشرائح الإجتماعية كبيرة وهي تتسع على الدوام حيث الشرائح والطبقات الوسطى تضمحل وتتلاشى إذ أن بعض أفرادها ممن يتقنون امتطاء الموجة ينحدرون إلى الأعلى، وأما معظم أفرادها فيقفزون مسحوقين إلى الأسفل.

أمواج الهجرة من الريف إلى المدينة متواصلة لأسباب اقتصادية حيناً وسياسية – اقتصادية (خاصة في المناطق الكردية) أحياناً أكثر. ولك أن تقدر ما يترتب على ذلك من النتائج الاقتصادية (حيث يستمر هبوط قيمة العملة التركية) وما يستتبعها من الإفرازات الإجتماعية الخطيرة. وبينما تسطع المدينة بالألوان والأضواء ومظاهر الرفاه والترف التي لاتعد ولاتحصى فإن الفقر والفاقة والجريمة تعشش فيها. وإذ يطغى الإيقاع السريع للعصر بهويته الغربية وتبعاته الجميلة الرائعة والقبيحة المريضة على حد سواء على الحياة اليومية، فإن سمة الشرق وسحره وغموضه قابعٌ غافٍ في اسطنبول ينتظر السواح الأوروبيين يجلون عنه الغبار وصدأ السنين.

لازلت في اسطنبول أبحث عن اسطنبول... عن وجهها الحقيقي... عن البهاء الاسطنبولي الذي بات نادراً خلف أقنعة الزيف والمظاهر الخادعة.

أعيش في وضع مؤقت، ففي داخلي أحاسيس متضاربة يغلب عليها عشق الوطن والحنين إلى أرضه وهوائه وافتقاد دفء العائلة ورفقة الأصحاب يشوبها الإحساس بالنفي والغربة متقاطعاً مع مشاعر الانبهار ونشوة البحث والاكتشاف. أفتقدك في رحلة البحث هذه، فكم كنت أود أن نكون معاً: نتسكع في ساحات (سلطان أحمد) وشوارع (تقسيم) أو نسترخي على مقاعد أرصفة (مرمرة) ونكرع كؤوس العرق التركي الرائع تحت غيمة دخان شواء السمك الطازج الخارج تواً من شباك الصيد في القوارب الصغيرة المتناثرة على ساحل البوسفور في غروب ربيعي رائق... نلتقط همسة ما من هنا وإيماءة من هناك... ونصغي بانتباه بالغ إلى النبض الخفي لقلب اسطنبول "كزورق طاف قذفته أمواج البحر بعيدا... أتجول في المدينة... كل شيء يبدو غريباً غامضاً ومع ذلك ساحر جداً... إن اكتشاف المدينة يشبه تفتح الأشياء في غابة عذراء".

أعيش آملا أن أنهي حالة (العيش المؤجل) لأنني أدرك تماماً بأن الحياة هي: الآن... هذه اللحظة... إنه الزمن يمضي ويمضي... هذه الصباحات الندية الراعشة والاماسي المعطرة والليالي الحبلى بالسهر والأغنيات، هذه الفصول المروعة، كلها لاتمكث البتة على شاكلة... إنها تغيب فجأة... وتختفي إلى الأبد...

وماذا بعد اسطنبول؟.

لا أخفي عليك أن الصورة التي في ذهني عن المجتمع الرأسمالي (المتطور جداً) في عصر تكنولوجيا نهاية القرن العشرين لاتبعث السرور في نفسي... فلايغير حقيقة السموم شكلها أو لونها أو طعمها حتى... وأعرف جيداً إذ أحط رحالي هناك طال الزمن أم قصر، فإنني لا أتوجه نحو تحقيق الخلاص بل معايشة الغربة والاغتراب والاستلاب والتشيؤ،

بعد أن كان ذلك ترفاً ذهنياً محضاً استحضره في كتاباتي ومناقشاتي.

في خضم المعارك الخاسرة التي خضتها حاملاً صليبي بحثاً عن الخلاص واليقين دون جدوى، عاطل عن العمل لازلت، والشك في مقدرتي على مباشرة عمل حقيقي أخذ يساورني بعض الأحيان بعد أن بدأ الصدأ يغزو أجزاء في ماكينتي الجسدية والفكرية... وطالما تمنيت أن أتفرغ للكتابة في سنواتي الأخيرة بعد لملمة بقاياي التي ظلت سليمة معافاة إثر مسلسل الهزائم والخيبات التي نالت مني ووسمت تجاربي بميسمها، وكلها أمور تسوغ فعل الكتابة وتبرره. فإما أن يكتب المرء لأن حياته ممتلئة طافحة، وإما أنه يكتب، وهذا شأننا، لأن حياته ناقصة... والعذاب يتفاقم، لابد من الإقرار بذلك، عندما أفكر في مواصلة الكتابات النقدية، بعد انقطاع طال أمده، وفي أجواء افتقد فيها المصادر الضرورية والنتاجات الجديدة باللغة العربية.

والمحنة تتجاوز هموم التجربة الذاتية التي أحاول التعبير عنها في (تحولات). فهي، كما أفهمها، محنة تمر من الخاص الى العام وتمتد من العام الى الخاص. هي محنة أجيال برمتها، أجيال ما بعد الحرب العالمية الثانية وانتصار الاشتراكية وشيوع أفكارها وبروز الثقل السياسي لحركات التحرر الوطني في (بلدان العالم الثالث). محنة هذه الأجيال التي حكم عليها بالعطل والانطفاء. وإذا كانت هذه الأجيال قد أثبتت جدارتها وحققت أمجادها في مقارعة أفكار العبث والعدمية التي أفرزها الدمار والخراب اللذان حلاّ بالعالم بسبب الحرب العالمية الأولى، فها هي اليوم تسقط في الشراك نفسه بعد أن أحاط بها الخواء من كل صوب وأصبحت فريسة سهلة للتشتت والضياع والإحساس باللاجدوى... فما الذي يمكن أن نفعله بمفاهيمنا التقدمية – الثورية وقيمنا الإنسانية ومؤهلاتنا الفردية...؟. وهل يمكنني شخصياً أن أتقبل وأتأقلم مع مفاهيم النظام العالمي الجديد واصطفاف القوى الجديد والجميع ينتظر الخلاص

تحت ظل البيرق الأمريكي في عصر ما بعد گورباتشوف، حيث أصبح نظام صدام حسين ثورياً! والعب لعبة البهلوان واحتفظ مع ذلك بكبريائي واحترامي لنفسي...؟

وبعد، فكيف أحدثك عن مشاعري عندما علمت أن مكتبتي قد بيعت، هذه الآلاف من الكتب التي حرصت على اقتنائها على امتداد عقود من السنين، لتغطية تكاليف سفري إلى تركيا بجواز مزور، رغم أني كنت قررت بيعها هكذا بضربة واحدة... إلا أنّني أحسست عندما وصلني الخبر بان جذراً عميقاً من جذوري تلك التي اعتز بها قد بتر هكذا قسراً دون مخدر، وقد لازمتني الغصة وامتلأت عيناي، أنا شحيح الدمع، بالدموع...

التاريخ إلى اين...؟

مفرح في متاهة المزايدات السياسية الوطنية و(الكوردايَتية). وسط العزلة والبؤس والخراب الفكري والثقافي الذي يعيشه الناس في كُردستان-العراق، ان يطلع الأخ (زيوهر خطاب) على القراء بمقالته (نهاية التاريخ والرجل الأخير) في جريدة (الاتحاد) عندما كانت تصدر في أربيل، معلقاً على كتاب الكاتب الأمريكي - الياباني الأصل (فرانسيس فوكوياما) الذي يحمل العنوان ذاته، ليعيد إلى القراء، بعد قطيعة طويلة إحساس الانتماء إلى هذا العصر والى عالم الإنسان. فالإنسان قبل وبعد كل شيء ليس (عربة تسير على عجلتي الطعام والجنس) وإذ نقر بان معالجة موضوع مهم وشامل كهذا لاتتم عبر (تحولات) في حيز صحفي صغير، إلا أنّني اود ان اثبت بعض الملاحظات متحفظا على بعض ما ورد في المقال من ناحية ولزيادة الايضاح من ناحية اخرى، خاصة وان انهيار تجربة الاتحاد السوفيتي شجعت على بروز وانتشار طروحات فكرية وفلسفية عديدة تؤكد ديمومة بل وازلية النظام الرأسمالي باعتباره النظام الاخير ونهاية التاريخ، متناسية ان احد اسباب بقاء واستمرار النظام الرأسمالي تعود إلى حملات الترقيع المتتالية لثوبه المهلهل ومعالجة عيوبه ونواقصه ببعض منجزات النظام الاشتراكي كالضمانات الإجتماعية والتأمين الصحي وغيرها.

ورغم ان المقالة لاتحدد مفهوم التاريخ إلا انه من الواضح بان المقصود هو التاريخ الإنساني والذي بدأ قبل حوالي ٤٢ الف عام، أي عند نهاية آخر عصر جليدي على سطح الكرة الأرضية، وليس التاريخ الطبيعي والذي يمثل الجنس البشري فيه مرحلة متقدمة ومتطورة. ومراجعة أولية لآراء أفلاطون والفارابي وتوماس مور وروبرت اوين

وماركس الذين وردت أسماؤهم في المقال توضح لنا بأنهم جميعاً بحثوا عن افضل صيغة لنظام إجتماعي سياسي يستقر عليه البشر (جمهورية افلاطون، المدينة الفاضلة، الاشتراكية، الشيوعية...الخ) اي ان تحقيق نظام إجتماعي سياسي يضمن للبشر حياة مثلى مستقرة خالية من النزاعات والصراعات كان هدف اولئك المفكرين وغيرهم. فهم أرادوا مجتمعاً افضل يعيش فيه الإنسان تتوقف فيه النزاعات وينتهي صراع الإنسان مع الإنسان. ويتوجه الجهد الإنساني بالأكمل نحو البناء والإبداع، حيث يصبح التاريخ تاريخ البناء والإبداع.

ان نهاية التاريخ عبارة خاطئة ولا معنى لها، لان التاريخ لانهاية له وهو لم ولن يتوقف...

واذا كان الاستاذ زيوهر يقر بان (... وكما ان التاريخ لاينتهي عند حد، فنهاية التاريخ تعني نهاية الإنسان...) فلماذا لايقر بأن بداية التاريخ تعني بداية الإنسان أو أن بداية الإنسان تعني بداية التاريخ، اذ انه يقول (عندي التاريخ لم يبدأ بعد. وكل ما عانته البشرية من مصائب وآلام وصراعات كان مقدمة لبداية التاريخ. والتاريخ عندي يبدأ من النظام الذي يكون مزيجاً من... الخ).

ان التاريخ في سيرورته وصيرورته التي لاتعرف التوقف لايفرق بين ما هو صالح للإنسان وما هو غير صالح له. فقد بدأ التاريخ الإنساني مع الإنسان ومع صراعه من اجل البقاء... وإذا كان (فوكوياما) ومعه الأستاذ زيوهر يؤكدان على ان التاريخ هو النظام السياسي الإجتماعي. وان نهاية التاريخ تعني النظام الأخير كما يتساءل الاستاذ زيوهر: (... اذن ما هو النظام الاخير والى اين ينتهي التاريخ؟) فنحن نود ان نؤكد بان التاريخ الإنساني ليس السعي نحو تحقيق افضل نظام إجتماعي سياسي فحسب، بل هو يشمل إضافة إلى ذلك سعي الإنسان نحو المعرفة. ذلك السعي الذي تراكمت على إثره الخبرة المعرفية

وتأسست الحضارات الإنسانية نتيجة دأب الإنسان وبحثه الطويل عن إجابات للأسئلة التي أرقته عبر العصور في صراعه الأبدي مع قوى المجهول من اجل البقاء والحياة الأفضل.

وفي محاولة منه لإنصاف (كارل ماركس) يقول الأستاذ زيوهر: (كان ماركس حالماً وطوباوياً في جانب كبير من تفكيره وكان يظن ان الاشتراكية ومن ورائها الشيوعية هي نهاية التاريخ، وان حلم الإنسان سوف يتحقق على الأرض).

وإذ نتفق مع كاتب المقال بان ماركس كان حالماً، فنحن لانتفق معه بان ماركس كان طوباوياً حيث ان ماركس كان ثورياً حقيقياً مؤمناً بضرورة التغيير (كل الفلاسفة الذين جاءوا قبلي فسروا العالم انما المهم هو تغييره) من هنا فان حلم ماركس كان مكملاً لثوريته. فالثوريون الكبار حالمون كبار.

ماركس هو أول من انزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وربطها بحياة المجتمع والناس، بعد ان كانت بحثاً نظرياً وفكرياً بحتاً لايمت إلى الواقع بصلة. وقد قال فردريك انجلز (الماركسية علم يتغير مع كل اكتشاف علمي جديد).

العلم الماركسي أي قوانينه الأساسية تقدم للبشر أدوات عامة لفهم العالم والمجتمعات البشرية والسعي لتغييرها. تكمن عبقرية ماركس وانجلز في: (انهما أخذا عدداً من القوانين العامة في الطبيعة وطابقا بينها وبين قوانين حركة وتطور المجتمعات، واعملا مثل غيرهما من العلماء ذات الأسلوب، أسلوب الملاحظة التراتبية المتكررة والتي يستمد منها مدى صحة القانون العام. ثم صاغا من هذه الملاحظات وبالاستناد إلى القوانين العامة في الطبيعة مجموعة من القوانين العامة لفهم المجتمعات وامتلاك أدوات تغييرها).

ماركس أول من حول التمرد كرفض مطلق إلى ثورة أي التمرد

المستند إلى فهم جدلية الواقع والتاريخ في إطار الزمان والمكان. ولذلك فان ماركس لم يكن طوباوياً. كما ان ماركس ما كان يظن بان التاريخ سينتهي مع الاشتراكية والشيوعية كما يعتقد الأخ كاتب المقال، بل ان ماركس كان يظن ويؤكد بان التاريخ سيتحول من صحائفه السود الى صحائفه البيض، من وجهه القبيح الى وجهه الجميل... سيتحول من سجل يحوي وقائع انتصارات وهزائم البشر ضد بعضهم البعض الى سجل يمتليء بانتصارات البشر على الطبيعة وقوى المجهول، سجل تتراكم فيه الخبرات والإبداعات الإنسانية التي تغني الحياة بعد حلول الاشتراكية والشيوعية. اما بصدد الرأسمالية فان الاخ زيوهر يقول: (وأظن ان الوقت لن يطول لهم وتنقلب اللعبة على الغرب وتظهر مصاعبه وخلافاته للسطح بعد ان زال الخطر السوفيتي عنهم!).

ليس هذا فحسب، ليس زوال الاتحاد السوفيتي هو الذي سيقلب اللعبة على الغرب كما يشير الكاتب، ذلك ان الرأسمالية تحمل في قلب نظامها الرأسمالي بذرة فنائها. تلك البذرة المتمثلة بتراكم الرأسمال وفائض القيمة وما سيترتب عليهما من نتائج اقتصادية – سياسية إجتماعية تشكل بالمآل مصاعبه القاتلة. ولا أدل على ذلك من التظاهرات الإجتماعية الصاخبة ضد مؤتمر منظمة التجارة العالمية في سياتل في كانون الأول (١٩٩٩) والتي قمعت بعنف شديد. والاحتجاجات الجماهيرية ضد إجتماعات المنبر الاقتصادي العالمي في سويسرا والذي يحضره عادة رؤساء دول عديدة في العالم إضافة الى شخصيات سياسية واقتصادية بارزة.

اما آخر هذه الاحتجاجات وليس أخيرها فهي التظاهرات الحاشدة ضد إجتماعات التنسيق للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي في واشنطن مؤخراً.

اذن فلا نهاية للتاريخ. وهكذا فلا وجود للرجل الأخير، انما هناك

الرجل أو القائد أو البطل المرحلي، ان صح التعبير. أي ان لكل زمان ومكان رجله وقائده أو بطله، ذلك الإنسان الذي يتحرك وفق الوعي العميق لجدلية الواقع والتاريخ ووفق إدراك الضرورة الموضوعية والعمل باتجاه مسارها التاريخي .

أسئلة تبحث عن أسئلة

ما الفن؟ ولماذا الفن؟ وهل الحياة في حركتها الدائبة تميل إلى تحقيق التوازن أم إلى الإخلال به؟

وهل ينحسر الفن كلما حققت الحياة مزيداً من التوازن؟

قال موندريان (سيختفي الفن بمقدار ما تحقق الحياة مزيداً من التوازن).

إن اعتبار الفن (بديلاً للحياة) وتعويضاً عن انعدام التوازن فيها يتضمن فكرة زوال الفن أيضاً... وقد تبدو الفكرة مقبولة ولا اعتراض عليها للوهلة الأولى... إلا اننا لو تأملنا الحياة تأملاً أولياً، لوجدنا أنها تميل إلى التوازن وتحققه باستمرار.

فالعمليات الحيوية في الكائنات كافة والظواهر الطبيعية من تعاقب الليل والنهار والكسوف والخسوف والمد والجزر والعواصف والرعود والزلازل والبراكين ودوران الكواكب والنجوم، ووجود الموت في الحياة، كلها تمنح الحياة توازنها المنشود.

وما تسعى اليه علوم الطبيعة عموماً هو اكتشاف وتفسير المزيد من التوازن في الطبيعة والكون.

وقد نشأ الفن أصلاً لان الإنسان البدائي لم يكن يفهم الطبيعة، فقد اكتشف الإنسان الفن والتجأ اليه لمعالجة عجزه وحيرته ازاء الطبيعة والكون في صراعه من اجل البقاء...

فالخلل اذن ليس في الحياة، بل في الحياة داخل المجتمع البشري. وعبارة موندريان تكتسب طابع الدقة اكثر لو أصبحت: (سيختفي الفن بمقدار ما تحقق الحياة في المجتمع البشري مزيداً من التوازن). هذا التوازن في المجتمع البشري الذي لايمكن قطعاً ان يتحقق يوماً ما. لهذا كان الفن ولايزال وسيبقى دوماً لصيق الإنسان في كل العصور.

وقد نشأ الفن كمحاكاة. وهي تختلف باختلاف المادة المستخدمة: الأدب محاكاة عن طريق اللغة مثلما ان الرسم محاكاة عن طريق الصور.

واذا شئنا تحديد ماهية الفن فان الأمر يدعونا إلى تفحص نتاج المحاكاة الذي لاينطوي بالضرورة على الأشياء الحقيقية وانما الأوهام التي تكون في حاجة إلى وجود فعلي.

قال ارسطو: (ان الشعر يروي العام بينما يروي التاريخ الخاص). وهذا القول يؤكد على ان الشعر يتضمن الوهم مادام لايروي الخاص (أي المؤكد الصادق).

وقد أشار (فري) إلى اشتراك الألفاظ الفرنسية Fable, Mythe, Fiction: التي تطلق على الأدب مثلما تطلق على الكذب.

إلا ان هذه العبارات الأدبية من جهة أخرى ليست كاذبة مثلما أنها ليست صادقة. وقد بين فريجه: ان النص الأدبي لايمكن أن يقاس بمعيار الحقيقة، وانه ليس كاذباً ولا صادقاً، وانما هو نص وهمي. وبهذا الصدد أيضاً يؤكد الناقد رينيه ويلك: (ان طبيعة الأدب تتجلى اكثر ما تتجلى على مستوى الإحالة) ذلك اننا نرجع في اقرب الأعمال إلى الأدب إلى عالم من الأوهام والخيالات، فليست عبارة رواية أو قطعة شعرية أو مسرحية صادقة صدقاً حرفياً، انها ليست منطقية، وتلك هي السمة المميزة للأدب، واعني إحالته إلى أوهام.

وقد يفسر هذا إلى حد ما انشدادنا إلى اعمال الفن. فالى هذا العالم الوهمي الأكمل والأكثر غنىً نلجأ هرباً من وجود ناقص وقليل الإرضاء. لماذا لايكفينا وجودنا الخاص؟ وما مصدر الرغبة في تحقيق حياتنا التي لم تتحقق من خلال شخصيات أخرى (في الفن) وأشكال أخرى...؟

هكذا يتساءل ارنست فيشر. الواضح ان الإنسان بحاجة إلى ان يكون اكثر مما هو. فهو بحاجة إلى ان يكون انساناً كلياً. ان يتخطى فرديته

وعزلته. انه يسعى إلى عالم اكثر وضوحاً وعدلاً. إلى عالم يكون له معنى. وهو يثور على فكرة فنائه داخل وجوده المحدود. انه يطمح إلى احتواء العالم. ان يوحد الأنا المحدودة بوجود جماعي عن طريق الفن. وان يجعل فرديته إجتماعية.

واذ يرفض الإنسان اللامعنى في وجوده ويثور على عبثيته يبحث عن المعنى في الفن. فهل يحقق (عالم الوهم) له المعنى الذي ينشده؟

الفن نتاج فنان محكوم بشرط البيئة والنظام الإجتماعي، يتضمن حقائق، فلابد له اذن ان يحمل معنى ما. والحقائق التي ينطوي عليها الفن بهذا المفهوم، حقائق تضطلع بها بصورة أوفى وبشكل أدق مجالات المعرفة الإنسانية والتي لها كيانها المستقل، كعلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية عموماً. ولايمكن للفن ان يكون بديلاً لها في مجال المعرفة الإنسانية.

وهكذا فان الفن إذ يتضمن (حقائق) فانما يشير اليها أو يمسها مساً خفيفاً ويستخدمها كمواد أولية تدخل في عملية الخلق الفني ولاتعنيه بحد ذاتها.

الفن يحمل معناه في ذاته. والفن الحق يعني انه لايدل إلا على ذاته، ولايعني إلا إياها، ولاينطوي إلا على نفسه. انه كل مكتف بذاته. لكن الفن يتحدد بالجمال (فإذا كان العمل الأدبي لايبرر وجوده إلا بكونه يدل على شيء خارج عنه، فانه سيصبح بفعل ذلك وسيلة، هذا في حين انه عندما يتعلق الأمر بالجمال فانه يكون دوماً هو الأساس).

الرسم هو الصور التي ندركها لذاتها لا بدلالة منفعة أخرى. والموسيقى أصوات تنطوي على قيمتها في ذاتها. أما الأدب فهو لغة لاتستخدم كوسيلة، وانما تستمد قيمتها من ذاتها أيضاً.

ويذهب البعض ابعد من ذلك بكثير، فالفن لديهم لايخضع للمعنى، كما انه يرفض أي شكل من أشكال التحديد.

كتب كونداياك (كلما تعددت اللغات التي تستحق الدراسة تعذر تحديد ما نعنيه بالشعر. لان كل شعب كون عنه فكرة مخالفة. ان السمة الطبيعية التي تميز الشعر كما تميز كل نوع من أنواعه هي سمة تتولد عن مواضعة واتفاق. وهي من التنوع بحيث لايمكن تحديدها. وعبثاً نحاول الكشف عن ماهية الأسلوب الشعري فلا وجود له البتة).

ويقول فريدريك شليجل: (لايمكن لتعريف الشعر ان يحدد إلا ما ينبغي ان يكون عليه الشعر. لا ما كان عليه ولا ما هو عليه في الحقيقة. وإلا فانه سيرتد إلى عبارة وجيزة: الشعر هو ما سمي كذلك في أي زمان وفي أي مكان).

ان ما يشكل جوهر العمل الفني أو سره، ليس هو ما يمكن التحدث عنه، بل ما لايمكن التحدث عنه. انه خفي مبهم. يأبى التفسير. نحس به ولايمكن إدراكه والتحدث عنه.

يقول الناقد ريجارد بلاكمور (ليس ثمة ما ينوب مناب الشعر على هذه الأرض. فالشعر اصطلاح، قول خاص جديد، لايمكن أن يقال بشكل آخر مدى الحياة).

ان العناصر التي تشكل العمل الفني: الكلمة، الصوت، اللون... الخ. تفقد حياتها الاعتيادية إذ تدخل في تركيب العمل الفني، وتكتسب نتيجة وضعها الجديد وعلاقاتها الجديدة في العمل الفني حياة جديدة اكثر غنىً، فتصبح الكلمة والصوت واللون... الخ، هي ما هي وهي ليست ما هي، هي وظلالها. هي وإيماءاتها، هي وما ستكونه.

وهنالك أيضاً ذلك الاختلاف الكبير بين الكلمات المستعملة حول القصيدة، والقصيدة نفسها كالاختلاف بين الكلمات المستعملة حول الرسم والرسم نفسه، والهوة مطلقة. ويؤكد فيشر: (ان الفن في جميع أشكال تطوره، في جده وفي هزله وفي الإقناع وفي المبالغة وفي ما هو عاقل وما هو عبثي وفي التفنن وفي الواقع ليتصل دائماً بشيء من

السحر).

وبعد، هل أكون بهذا قد أجبت على كافة الأسئلة التي أثرتها في هذه (التحولات) حول الفن؟

لابد لي من القول ان افضل الأسئلة لاتبحث بالضرورة عن افضل الإجابات بل ربما عن المزيد من الأسئلة.

روح العصر في القصة الكردية الحديثة

لا أدري إذا كان خواء الواقع والخراب الذي حلّ بالوطن أم إفلاس الحاضر وعقمه والقتامة التي تطغي على آفاق المستقبل في هذا المغترب اللعين هو الذي يثير هذا الشجن الثقيل والحنين العاصف لاستعادة الماضي واسترجاع إيقاعه العذب اللذيذ ضماناً لسريان أنساغه إلى كل الأغصان المبعثرة هنا وهناك لإدامة نضارتها قبل أن يحل بها الجفاف.

في المساحات الضيقة التي كان الأدباء العراقيون يختطفونها، وسط أسوار الحصار الثقافي والفكري المشدد حولهم، على هامش الملتقيات والندوات الثقافية والأدبية، بعيداً عن أعين الرقباء وفي الجلسات الخاصة، يمارسون فيها هوسهم المحبب في تداول ومناقشة الطاريء والجديد في حقول الثقافة والأدب.

جمعني في جلسة خاصة على هامش ملتقى القصة الكردية في أربيل إلى جليل القيسي ورؤوف بيگرد وصلاح شوان حوار حميم حول مدى انعكاس (روح العصر) في القصة الكردية الحديثة.

أثبت هنا الصيغة النهائية للحوار بعد ربط أجزائه إثر تفريغ الشريط المسجل:

رؤوف بيگرد (قاص كردي معروف):

إن القصة الكردية الحديثة تخطت وبكل جدارة، الأطر والأساليب القديمة التي كانت تقيد القاص بأشكال بالية ومضامين سائدة متهرئة...

إن نخبة من القصاصين الكرد الذين تفاعلوا بشدة مع الواقع وتفهموا هذا النوع الأدبي بكل وظائفه الإجتماعية والفنية استطاعوا أن يتجاوزوا الحدود الضيقة التي كانت تحصر القصة الكردية... فالقصة الكردية الآن تستقي مضامينها العميقة من

العلاقات الإجتماعية المتداخلة والمتناقضة، كما وترفض السكون الذي يسود بعض هذه العلاقات.

القاص الكردي الآن يمتلك الأساليب الحديثة للقصة في التعبير عن الحياة... من اللغة الرصينة المكثفة والصور الشعرية والتناسق بين بعدي الزمان والمكان، والإيقاعات المتدفقة بانسيابية حرة...

وتطرق القاص والمسرحي العراقي المبدع جليل القيسي إلى علاقة القصة بالقاريء:

إن العمل الإبداعي هو أولاً موهبة فنية أصيلة، وعمل شاق، ثم عصر، وواقع غني، فبدون توفر هذه الشروط لايمكن أن يوجد الكاتب المبدع، وبالتالي القاريء الناقد... ولكي يبدع الكاتب عملاً إبداعياً رائعاً يجب أن يعرف كيف يعايش الواقع وما يقدمه هذا الواقع من علاقات وأحداث وتجارب متشعبة، وكوابيس وأحلام وعواطف فوارة، وآمال خصبة ومحبطة.

وعندما يعمل الكاتب على كشف وتعرية المفاهيم البالية والفراغ والبلادة والنواقص، والقيم الميتة، ويجاهد عبر فهم منطقي وإستاتيكي على ملئها بقيم أروع، تصعد عند القاريء طاقاته الفكرية والروحية، وتجعله يحس أن ثمة حياة أروع، ومستقبلاً أغنى... إذ ذاك يكون بوسعه أن يخلق القاريء الناقد... والقاص الذي يستطيع ان يخلق اشكالاً من الإبداع والخلق، وحده يستطيع ان يخلق القاريء الناقد... إن كل عمل إبداعي كبير وراءه فنان ذو وعي جمالي حقيقي وجدلي... يعرف كيف يطرح مضامينه الساحرة التي تجبر القاريء على فهم العالم موضوعياً ويحوله إلى ناقد متنور.

وقد طرح الشاعر والقاص الكردي المجدد صلاح شوان عن روح العصر وجهة نظر مختلفة واقعية وشاعرية في آن:

انعكاس (روح العصر) في القصة الكردية الحديثة أشبه بانعكاس معطيات العلم والتكنولوجيا و(الإبادات الجماعية) في برعم انبثق من تحت طبقات ثلج الشتاء للتو... إنني أفضل التحديق في الشعيرات الدقيقة لهذا البرعم، كيف تتندى صباحاً، من أن أفكر بما يحدث لو تدحرجت تلك الصخرة العظيمة بفعل الآلات (الإنسانية!!) الجبارة استثماراً لتلك الرقعة من الأرض.

للقصة الكردية إيقاعها المتواضع الحميم، وهو كل ما يستثمره القاص الكردي اليوم من روح هذا العصر، فليس لدينا(إدگار) أو (تشيخوف) ولا عصرنا عصرهم... والقصة الفنية الحديثة، تنحو منحى يستحيل معه احتواء هذا الدويّ المتضخم الزاخر لروح هذا العصر... فشجرة البلوط لم تثمر، على الأقل لحد اليوم، قمراً صناعياً... أو... ببساطة شديدة... إن الإنسان الكردي موجود في قصتنا القصيرة المعاصرة، يشعر بما نشعر به، وينعكس فيها ما ينعكس في أعماقه... أو لنقل إنّ لقصتنا القصيرة عصرها وإيقاعها المتواضعان.

أما مداخلتي حول موضوع مدى انعكاس (روح العصر) في القصة الكردية الحديثة كما عبرت عنها قصص الملتقى، فقد كانت بالشكل التالي:

الحق أن هذا الموضوع شائك ومعقد، فمن ناحية أولى، إن مصطلح (روح العصر أو إيقاع العصر) بحاجة إلى الإيضاح والتحديد... فما هو المقصود به بالضبط؟ ولعل عدم الوضوح في الإحاطة بأبعاد هذا المصطلح يقود القصاصين بشكل أو بآخر إلى الوقوع في شرك البلبلة الجمالية والفكرية... إن الحياة اليومية الاعتيادية... لاتعكس تناقضات الواقع الأساسية إلا بشكل باهت وخفي... وعلى القاص أن يغوص عميقاً لاكتشاف ذلك الواقع الخفي الذي يخفق تحت أضلاع الواقع اليومي

الاعتيادي... فالأدب كله ينحو نحو الانشغال بمشكلة الحقيقة: أي بين ما يقدمه الواقع فعلا وبين ما يدعي أنه يقدمه... قد يوفق القاص فعلا في اقتناص حركة الواقع الخفية بنبضها المتدفق كما عبرت عنه بعض قصص الملتقى... إلا أن الفهم الميكانيكي والساذج لمفهوم (روح العصر أو إيقاع العصر) يجعل الكثير من القصاصين يسقطون ضحايا الصرعات والتقليعات الشكلية والتكنيكية المقتبسة، فيخلعون على مضامينهم أشكالا تكنيكية جاهزة بشكل قسري وتعسفي، بحجة التجديد والمعاصرة... إنهم بذلك يجنون على قصصهم، ويحرمونها من النمو التلقائي ويمنعون شخوصها من التطور الطبيعي والتنفس في الهواء الطلق، والتحرك على رقعة الواقع الإجتماعي بحرية وعفوية.

يقول بيلينسكي: "إذا وجدت أفكار العصر فستجد حتما شكلها المناسب..." إن الشكل الأفضل هو الذي يستثمر موضوعه أفضل استثمار، ولا مفاضلة بين موضوع وموضوع إذا كان القاص مُسلحاً برؤية حيوية للواقع مؤسسة على فهم صحيح للقوانين الديالكتيكية التي تحرك هذا الواقع... إذا اطمأن الأخوة القصاصون إلى أن المضامين التي يتصيدونها بجراءة ودقة، قادرة على إيصالهم إلى شاطيء الأمان في بناء قصصي متميز بقدرته التعبيرية، ويحتفظ في الوقت نفسه بالمتطلبات الجمالية والفنية الملائمة لها تماماً، فإنهم سيمتنعون عن فرض الأشكال التعسفية على قصصهم، مهما كانت هذه الأشكال قادرة على استثارة الإعجاب والاندهاش بجدتها وحداثتها. إن قصصهم، إذ تتشكل عبر شخوصها وفعلها الدرامي وعلاقاتها بتلقائية وبدون قسر، فإنما تجد شكلها المناسب أيضاً.

فالشكل في العمل الفني يتمثل ابتداءً من الكلمة الأولى ولايكتمل إلا باكتمال العمل الفني برمته. لذلك فلايمكن أن يقال أي شيء عن الشكل في العمل الفني إلا بعد اكتماله... إن روح العصر وإيقاع العصر

لايتحققان إلا في المواءمة التامة بين الإطار الإجتماعي والحضاري الذي ينعكس بشكل خفي وباهت في الواقع الذي يعيشه القاص في لحظته الراهنة وبين اخطر الهموم البشرية التي تؤرق الإنسان في كل العصور...

"ان احدى اعظم مآثر الفن، تكمن بالضبط في تثبيت القيم الدائمة لكل ما هو زائل..".

الحرية والإلتزام

تشهد الأوساط الثقافية والأدبية العراقية بين آن وآخر، في هذا الموضوع أو ذاك معارك ثقافية تعتبر، إن لم تكن شخصية ومفتعلة، علامات صحة وعافية في إنعاش وإغناء الواقع الثقافي وتهيئة الأجواء للإنعطافات والنقلات النوعية في حركة الثقافة والأدب.

فبينما يثار الجدل في المنافي وفي معركة ثقافية موهومة حول أدب الداخل وأدب الخارج، يحتدم النقاش في الجزء المحرر من العراق (كُردستان العراق) وبفضل مساحة حرية التعبير النسبية المتاحة هناك حول الأدب الحزبي أو المتحزب في مناخ عام يتقلص فيه حجم وتأثير الأدباء والمثقفين المستقلين لصالح الأدباء والمثقفين المرتبطين بالأحزاب السياسية بشكل مباشر أو غير مباشر ولأسباب لايستوعبها هذا المجال.

في مقالة له تحت عنوان (شغيلة الفكر والعلم... السياسة والحياة الحزبية) يدافع أحد الزملاء عن الأدب الحزبي أو الأدب المتحزب كما يسميه، ورغم أن هذا الموضوع ليس جديداً إلا أنه يحظى بأهمية خاصة في إقليم كُردستان العراق في المرحلة الراهنة.

يسود المقال التشوش والارتباك لأن الزميل لايفلح في تحديد مقاصده بدقة ووضوح، فتارة يتكلم عن الأدباء والفنانين الذين مارسوا الحياة الحزبية (انخرط عمال الفكر – الأدباء، الفنانون، العلماء، والمثقفون من مختلف الاختصاصات والمهن – في الحياة الحزبية وممارسة النشاط السياسي جنباً إلى جنب مع الفئات الأخرى من الناس وبالأخص الطبقات الكادحة...)، وتارة عن (عمال الفكر الذين عبروا في أعمالهم الفنية والأدبية عن طموحات شعوبهم من خلال مواقف أحزاب انتسبوا إليها أو تعاطفوا معها، يحظون بمكانة مرموقة لدى شعوبهم وشعوب العالم وكذلك أعمالهم الأدبية والفنية ذات المضمون المتحزب ولكن المبدع.

ولم يمنع التحزب بينهم وبين صياغتهم لأعمال أدبية وفنية رفيعة...)، وأخرى عن السياسيين الذين مارسوا الأدب (لقد خلف زعيم الحزب الشيوعي الصيني "ماو تسي تونگ" باقة من القصائد... والشيء نفسه بالنسبة إلى القائد الفيتنامي "هوشي منه" وكان أول رئيس لجمهورية انغولا أحد أبرز شعراء أفريقيا... الخ).

لا يخفى على القاريء انه لايمكن الخلط بين الأصناف الثلاثة إذ لايمكن جمعها في خانة واحدة لأن الفروقات بينها بيّنة واضحة. ويخطيء الزميل الكاتب عندما يجمع بين "بابلونيرودا" و"لويس أراگون" و"ناظم حكمت" ويتكلم عنهم بمنظور واحد ومن منطلق واحد.

فأراگون وبيكاسو كانا شيوعيين إلا أنّ إبداعهما الأدبي والفني لم يكن شيوعياً متحزباً بل شمولياً رحباً وإنسانياً عميقاً، حتى أن أساليبهما في الإبداع كانت تتجاوز مرحلتهما وعصرهما، فالأول كان سريالياً متأثراً بالدادائية أما الثاني فقد وصل الرسم على يديه إلى المرحلة التكعيبية، ولولا كونهما شيوعيين لرفض نتاجهما كلياً من قبل الشيوعيين. أما "ناظم حكمت" فيختلف عنهما لأنه كان شيوعياً وأبدع أدباً شيوعياً أيضاً.

هناك أدباء وفنانون ينتمون إلى أحزاب سياسية ويمارسون الحياة السياسية إلا انهم يبدعون في المجالات الإنسانية العامة بعيداً عن الحزبية. وآخرون حزبيون يبدعون أدباً وفناً حزبيين. أما الصنف الثالث الذي أشار إليه الكاتب وهو القادة الحزبيون، الذين يمتهنون السياسة أصلاً ولايمارسون الأدب والفن إلا كهوايات تدعم توجهاتهم السياسية.

يبدو أن مقالة زميلنا جاءت رداً على الرأي الذي أورده زميل آخر وفي مكان آخر يقول فيه (... لذا آمل أن يفهم كتابنا أنّ الكاتب هو الصوت الحقيقي للشعب على امتداد التاريخ القريب. إنّ الكتاب الذين يمارسون السياسة من منطلق ضيق، صاروا ملاحق وتوابع للأحزاب فأصابهم

الضرر. لقد تضرر "هيمن الموكرياني" حين اصبح تابعاً داخل الحزب. وتضرر "شاكر فتاح" حين مارس السياسة. وتضرر "گوران". وفي الآونة الأخيرة أصاب ضرر بليغ صديقنا الشهيد "دلشاد مريواني" حين مارس الحزبية الضيقة واستشهد...).

لقد فات الزميل الكاتب أن يرد على هذا الرأي بإثارة سؤال بسيط مفاده: هل أنّ الضرر الذي أصاب هؤلاء ينسحب على حياتهم الشخصية كأن يتشردوا أو يستشهدوا؟ أم أنّ الضرر أصاب إبداعهم الفني والأدبي جراء ممارسة الحياة الحزبية؟ فالحالة الأولى مشروعة، فمن طبيعة الأشياء أن يدفع المبدع ضريبة إبداعه في رفض هذا العالم الذي تنقصه العدالة والقيم الإنسانية. أما أن يصيب الضرر قدرة المبدع على الإبداع والعطاء فذلك موضوع جدير بالمناقشة والجدل.

وإذا كانت مقالة زميلنا دفاعاً عن الأدب الحزبي لهان الأمر ولما اعترضنا عليها، أما أن يكون الأمر دعوة لحزبية الأدب برمته فالأمر مختلف تماماً.

فالأدب الحزبي يكتسب شرعيته كلما كان صادقاً، وكلما ابتعد عن أدب الدعاية الهابط وتحاشى التقريرية والمباشرة وامتلك المقومات الفنية والجمالية. أما أن يكون الأدب كله حزبياً أو لايكون فهذا أمر غير مقبول إطلاقاً.

نحن نعتقد أن المسألة تتعدى (الأدب الحزبي) أو (حزبية الأدب) إلى مسألة أكبر وأشمل تتمثل في الاقتراب من فهم حركة المجتمع والتاريخ والضرورة الموضوعية. وذلك بتشخيص ورصد مصائر البشر والشرائح الإجتماعية المختلفة في خضم الصراع الإجتماعي الدائر دون توقف، والتعبير عنها تعبيراً فنياً وجمالياً عبر ابتداع المعادل الموضوعي الملائم.

فجون شتاينبك في (عناقيد الغضب) وارسكين كالدويل في (ارض الله الصغيرة) لم يكونا حزبيين كما يتوهم الزميل الكاتب، بل كانا

يعبران عن حركة التاريخ الصاعدة، فالأول رصد نتائج دخول الآلة (المكننة) إلى مجتمع المزارعين البسطاء، والثاني شخص العقلية القدرية الاتكالية للفلاح مقارنة بعقلية العامل الواقعية العملية في الزمن الذي تجري فيه أحداث الرواية.

إن فهم حركة التاريخ في البلدان النامية التي يشير إليها زميلنا وإدراك الضرورة الموضوعية فيها، حيث كانت تقود الحركات الوطنية التحررية والقومية فيها شرائح مختلفة وفصائل متعددة، وبالتالي أحزاب سياسية تمثل ذلك الاختلاف والتعدد، يختلف عن البلدان التي حدثت فيها الثورات الاشتراكية قادتها أحزاب تعكس مصالح طبقية معينة.

ويساهم الأدب والفن في هذه البلدان (البلدان النامية) في تطوير الوعي الإجتماعي والسياسي للجماهير قبل مرحلة التحرر ويمهد للثورة فيها، ومعظمه أدب وفن وطني تحرري ثوري وليس حزبياً.

والعراق قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ خير مثال على ذلك.

فهل كانت قصص عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي وقصائد بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وبلند الحيدري والجواهري الكبير وفن جواد سليم وغيرهم أدباً وفناً حزبيين؟ وقد لانخرج عن الموضوع إذا تكلمنا عن هزالة الأدب والفن أثناء وبعد النقلات والتغييرات الكبرى مباشرة. فالأدب العراقي الذي كتب بعد ١٤ تموز مباشرة لايرقى إلى مستوى الادب الذي كتب قبلها. والادب الذي كتب بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ في الاتحاد السوفيتي السابق وبتوجيه الحزب الشيوعي لايطال قمم الادب الروسي العظيم الذي أبدعته عبقرية "پوشكين" و"تولستوي" و"دوستيوفسكي" وغيرهم الذي شخصوا ورصدوا أمراض المجتمع الروسي القيصري وكشفوا تفسخه وسلطوا الأضواء على مواطن الأورام فيه، فاستشرفوا بذلك آفاق الثورة القادمة، ولم يكن أدبهم حزبياً بأي حال من الأحوال.

إن المعضلة الأساسية في رأينا تتلخص في حالتين: فإما أن يمنع الأديب عن قول ما يريد أن يقوله. وإما أن يفرض عليه أن يقول ما لايريد أن يقوله. ولابد من التأكيد هنا على حسن استخدام مصطلحات (الحرية، الإلتزام، الإلزام) بوعي العلاقة الديناميكية بينها.

نحن لانضع الحرية بديلاً للإلتزام أو مناقضاً له. فإلتزام الأديب والفنان دليل حريته. وبمعنى اشمل فالأديب ملتزم، حزبياً كان أم لا. لأنه يختار (أؤكد على يختار) قول ما يريد أن يقوله بأسلوب معين، فهو بالتالي يحدد موقفه تجاه القضية المطروحة وتجاه العالم القائم في نفس الوقت. وحتى إذا إلتزم الصمت، فيكون حينئذ قد اختار الصمت. أي أنه حدد موقفاً.

وقد أدان "جان پول سارتر" "گوستاف فلوبير" مؤلف رواية (مدام بوفاريه) الشهيرة لأنه إلتزم الصمت ولم يسطر حرفاً واحداً ضد المجازر الدموية التي تلت أحداث (كومونة باريس) سنة ١٨٧١ من هذا المنطلق، واعتبر سكوته موقفاً متواطئاً إزاء تلك الأحداث الدامية.

رسالة من بعيد

ويبقى الإنسان أعظم ما في الوجود... وتبقى المعرفة سبيله إلى اكتشاف الوجود، والرفقة وسيلته للتواصل معه...

يوم خريفي رائع في قلب الشتاء. تذكرت صديقك القديم تولستوي بينما كنت في متنزه واسع اقصده لأمارس فيه رياضاتي: التنزه والتأمل... تذكرت تولستوي بين أشجار البتولا الباسقة في الغابة التي كانت تحيط بمنزله...

تداعيات اشجار البتولا وتولستوي و(الحرب والسلم) قادتني إلى شولوخوف وملحمته (الدون الهاديء) التي قرأناها في سنواتنا المبكرة بترجمة رديئة بائسة، فقد شوهت الترجمة حتى عنوان الرواية الذي عرفنا بعد سنوات طويلة انه: (...ويجري الدون هادئاً). لايخفى عليك دلالة هذا العنوان الديناميكي المتحرك مقارنة بعنوان سكوني جامد كالدون الهاديء، مثله مثل أي عنوان: (أحذية باتا)، (لبن أربيل)... هذه (الواو and) التي تحمل زخم الرواية وتشي بالديمومة والخلود، فات المترجم أن يلاحظها ويضعها في موضعها الصحيح الذي يربط بين سيرورة الماضي والحاضر ويستشرف المستقبل...

الأحداث التي شهدها نهر الدون وكل (الصخب والعنف) الذي ملأ ضفافه فترة الحرب الأهلية العصيبة في روسيا أبان ثورة أكتوبر الاشتراكية... وثمة الشخوص العديدة التي تحتل مساحة الرواية تعصف بها الأحداث وتمور دواخلها بالعواطف. ثمة شعب يعيش مخاضاً عسيراً... انعطافة تاريخية حادة... ثمة دفء ولحظات إنسانية رائعة... ثمة حياة كاملة تستمر وتتواصل، ومع هذا وبالرغم من هذا فان نهر الدون يجري... ويظل يجري هادئاً...

هكذا فالأدب يكشف ما هو جوهري ودائم عبر تصويره لما هو آني

وزائل...

تداعيات وتجليات الترجمة والمترجمين وضعتني في خضم المعارك الادبية التي احتدمت في الخمسينيات من القرن الماضي، واختلط فيها الموقف الأدبي بالموقف السياسي والإجتماعي الناجم عن الصراع الفكري حول التحرر الوطني والقومي وقضايا التقدم الإجتماعي...

معارك ادبية حول علاقة الادب بالمجتمع ومفاهيم (الفن للفن) و(الفن للحياة) أو (الفن للشعب) والاشكاليات المثارة عن ثنائيات: اللفظ والمعنى أو الصورة والمادة أو الشكل والمضمون... واساساً حول الواقعية أو معنى الواقعية في الادب والفن...

وقد برزت في الساحة الثقافية والادبية اسماء طه حسين والعقاد من جهة ومحمد مندور ومحمود امين العالم وعبدالعظيم انيس من جهة اخرى اضافة الى آخرين...

كان فهمنا السطحي الساذج للواقعية يقتضي تذوق الادب وتقييمه من منطلق الصدق اولاً: بمعنى ان يكون الادب مرآة للواقع أي محاكاة حرفية للواقع وان يصوره تصويراً فوتوغرافياً ويعكسه بشكل اقرب الى التسجيل والوثائقية كي يكون اميناً وصادقاً استجابة لمفاهيم العلاقة الميكانيكية الجبرية بين الادب والواقع.

وبغض النظر عن الصدق بالمعنى الاخلاقي والصدق بالمعنى المعرفي فقد تطلب الامر زمناً طويلاً قبل ان نعرف معنى الصدق الفني في العمل الادبي الابداعي والذي يعني فيما يعني: العلاقة الجدلية الديالكتيكية. أي الاتساق والانسجام والتكامل التام بين كافة العناصر المكونة للعمل الادبي، ورفض كل اشكال المؤثرات الخارجية المفروضة عليه، بشكل يحقق خصوصيته وتفرده ووحدته العضوية، ويكون معياراً للتعبير عن الحرية فيه... وقد يجعلنا هذا نفهم كيف يكون حتى الكذب بالمعنى الأخلاقي صدقاً فنياً في العمل الأدبي الإبداعي عندما يكون ذلك الكذب

حدثاً أو عنصراً متسقاً مع بقية العناصر في نسيج العمل الإبداعي ناتجاً عما قبله ومفضياً الى ما بعده بيسر وانسيابية دون قسر أو تكلف. وقد قيل: أجمل الشعر أكذبه...

اذكر اننا راوحنا، ربما مازلنا، سنوات عند مفاهيم الشكل والمضمون التي تمثلت في جنوحنا الى الاهتمام بالمضمون على حساب الشكل انطلاقا من قناعتنا بالوظيفة الإجتماعية للأدب. هذا الناقد بيلنسكي يقول (اذا وجدت افكار العصر، فستجد حتماً الشكل الملائم لها). الشكل تابع اذن... كأن الشكل هو الاطار الذى يضم المضمون الذي يمثله الحدث أو الاحداث التي تقع داخل العمل الادبي وتحدد معناه.

وبعد ان سقطت قناعات وولدت اخرى تعلمنا: ان مضمون العمل الادبي ليس الاحداث التي تقع فيه، بل ان المضمون فى العمل الادبي هو ما يتحقق فيه من صياغة وتشكيل لموضوعه. وهو ما بات يطلق عليه النقاد: القيمة المضافة. فالقيمة المضافة هي التي تشكل ادبية الادب أو ابداعيته وهى نفسها مضمونه. ولايمكن الكلام عن مضمون الادب قبل ان تتحقق فيه قيمته المضافة التى تنتج عبر صياغة وتشكيل نوعي خاص لكافة عناصر موضوعه.

فالتشكيل والصياغة اذن لكافة عناصر العمل الادبي هي التي تحقق مضمونه... وكما لايمكن الكلام عن المضمون قبل اعمال الصياغة والتشكيل في العناصر المكونة له، كذلك، لايمكن الكلام عن الشكل أو الصياغة في العمل الأدبي قبل ان تقال آخر كلمة فيه.

فالشكل – الصياغة ليست مجرد اطار جامد ثابت للعمل الأدبي بل هي عملية أو عمليات تجرى في قلب العمل الادبي، تبدأ مع اول كلمة فيه ولاتنتهي إلاّ بعد ان تقال آخر كلمة فيه.

العمل الادبي انعكاس (فني) وليس (مرآوياً) للواقع.

هو اذن نتيجة ابداعية للواقع وهو في الوقت نفسه قوة محركة فاعلة

فيه: (نتيجة وعلة في آن واحد، هو دلالة إجتماعية، قيمة جمالية فى آن واحد، وهو بهذا شكل ومضمون تقوم بينهما علاقة عضوية ضرورية).

الثورة – الحلم

الاندهاش الطفولي الأول في اكتشاف أشياء العالم. الانبهار الأول. الرعشات الأولى. التعرف الحيادي – الأحادي الجانب على العالم المعطى كما هو. قبوله والاستمتاع به كما هو. أول الإحساس بالوجود. الوجود في فردوس العالم. في (جنة عدن) الحياة...

المرحلة الثانية: أول الوعي. المعرفة الأولى للخير والشر. اجتياز مرحلة الطفولة والبراءة والنقاء. أول المحنة. أول اللعنة – أول السقوط. وقد تناول الكاتب الأمريكي أرثر ميللر هذا الموضوع في مسرحيته (بعد السقوط) التي كتبها عن زوجته ممثلة الاغراء المعروفة مارلين مونرو. وفي سفر التكوين: "أن الرب اخذ آدم ووضعه في جنة عدن التي غرسها شرقاً ووضع فيها شجرتين هما شجرة الحياة وشجرة المعرفة" معرفة الخير والشر. وخلق له حواء، وحذره من الأكل من شجرة المعرفة هذه "لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً" لكن الحية أغوت حواء بالأكل من الشجرة فأكلت منها واعطت رجلها أيضاً فأكل بناء على نصيحة الحية "أكلا منها واصبحا عارفين للخير والشر، فسقطا وطردا من الجنة".

معرفة أن العالم ليس عادلاً. ان العالم ليس كما يجب ان يكون. وان الأمور فيه لاتسير وفق منطق إنساني معقول. ولايمنح البشر فيه فرصاً متكافئة لممارسة إنسانيتهم وتحقيق وجودهم. ومن هنا شقاء الإنسان وبؤسه... وبتفاقم بؤس الإنسان في هذا العالم، تتكشف اللاجدوى في الاتكال على الحاكم أو مفاهيم الوطن أو الإله في تحقيق الخلاص للإنسان. وفي قصيدته (عمال النسيج) صور هنريش هانيه – شاعر ألمانيا الكبير هذه الحالة وقد نشرت هذه القصيدة في جريدة (الى الأمام) في١٠ تموز ١٨٤٤.

المرحلة التالية: ان العالم يمكن ان يوجد بأشكال أخرى مختلفة، وان

شكله القائم ليس الوحيد الممكن. ضرورة تغيير العالم. إعادة تشكيله من جديد.

المرحلة التالية: الانخراط في عملية التغيير. الانتماء إلى الثورة. الثورة يوتيبيا المثقف. وتجدر الإشارة هنا إلى انه في حوار شامل وممتع أجراه معه إبراهيم الحريري، تطرق ببالغ الاقتدار المفكر – الشاعر (ادونيس) إلى هذا الموضوع، وقد تطلب الامر مزيداً من الجهد ابذله في انتقاء الكلمات وصياغة العبارات حيث تداخلت عباراتنا بعضها مع البعض للتعبير عنه. الثورة... ليس كفعل سياسي فحسب، بل الثورة الشاملة. الحلم الرومانسي. الثورة – الحلم. ثورة الإنسان. ثورة في كافة المؤثرات خارج الإنسان. ثورة في الخارج. ثورة في الداخل. الثورة كحركة دائمة وليس كتنظيم وسلطة ومؤسسات. ثورة لتكييف المؤثرات الخارجية لتستجيب لأدق واعمق التطلعات الإنسانية. ثورة لتحطيم البنى المؤسساتية والسلطوية كافة: في الثقافة، في الفكر، في العمل، في كل شيء...

الثورة لإعادة تشكيل الإنسان. تحريره من قيوده من الأطر المرسومة له. من قناعاته المسبقة. تخليصه من سطوة المعرفة الجاهزة. ان تبقى ثمة معرفة تنقصه مهما عرف لكي تبقى جذوة المعرفة فيه مشتعلة. إعادة البتولية إلى حواسه لكي تبقى شهوة الحس فيها بكراً. جعله قادراً على النفاذ إلى أشياء الطبيعة والتحاور معها لتوصيفها وفهمها. قادر عبر الامتدادت التي يمنحها لعلاقاته مع الكائنات والأشياء، على تحقيق علاقات كونية توصله للتوحد مع الكون... قادر على الانطلاق بعقله إلى آفاق المجهول لكي يتعرف على البهجة الغامرة في مغامرة العقل البشري...

إنّها محض أحلام أليس كذلك؟ نعم إنّها أحلام. ولكن ما الذي ليس حلماً. ما الذي لايبتديء بالأحلام؟

بالرغم من ان فهمنا للماركسية كان بسيطاً وأولياً في قراءاتنا المبكرة الأولى، إلاّ أنّ تعلقنا بأفكارها وتحمسنا لها كان شديداً وبالأخص تلك المتصلة بعلاقة الإنسان بالمجتمع. كانت قناعاتنا راسخة تماماً بان الثورة الاشتراكية لاتغير البنية التحتية (النظام الاقتصادي) في المجتمع فحسب، بل لابد ان تغير البنية الفوقية أيضاً (العلاقات الإجتماعية بما فيها العادات والتقاليد والأعراف وغيرها وصولاً إلى تركيبة الإنسان نفسه). فالإنسان في مجتمع اشتراكي يتخلص من كافة المخلفات الإجتماعية والنفسية الناجمة عن تأثيرات الصراع التناحري في مجتمع مبني على الصراع الطبقي والإجتماعي، ولا أدل على ذلك من الإحصائيات التي كانت تتوفر لنا بين الحين والآخر عن عدد مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية وعدد الأسرة فيها في المجتمع الرأسمالي، قياساً إلى نظيراتها في المجتمعات الاشتراكية التي لم تكن الرعاية الصحية فيها اقل من المجتمعات الرأسمالية إنْ لم تكن افضل. إضافة إلى كثرة جرائم السرقة والقتل والاغتصاب وغيرها في المجتمعات الرأسمالية مقارنة بمثيلاتها في المجتمعات الاشتراكية وغيرها من الأمور التي تفصح عن تفوق النظام الاشتراكي في مجالات تغيير الإنسان عبر تغيير شرطه الإجتماعي والمؤثرات الخارجية.

كان كل ما يتعارض مع مفاهيمنا وقناعاتنا نعزوه إلى مبتكرات النظام الرأسمالي ومخلفات العقل البرجوازي، فمن الطبيعي ان يكون للعلوم الإنسانية (علم الإجتماع، علم النفس، علم الجمال.. الخ) ضمن الفكر الماركسي، مفهوم يختلف عن مفهوم تلك العلوم في الفكر البرجوازي. ومن الطبيعي أن ننتقد مصطلحاً مثل (الطبيعة البشرية) من حيث انه يوحي بثبات الطبيعة البشرية ويلغي إمكانية تغيرها. فهو مفهوم تخديري لايساير التفكير العلمي التقدمي الذي يؤمن بالتغيير قانوناً أساسياً في الحياة. ومن الطبيعي أيضاً بل وأكثر أن نرفض بشدة

مفهوم (أن الطبيعة البشرية مجبولة على الشر) وان نعتبره مفهوماً رجعياً مقيتاً يغلق الأبواب بوجه أية محاولة لتغيير الإنسان نحو الأفضل. إلا أنّنا كنا نغالي عندما نشكك بوجود الغرائز، إذ كنا نعتبر تكريسها تكريساً للنظام الرأسمالي لأن بعضها ينمو ويستفحل في مناخ الرأسمالية ويبرره ويعززه مثل غريزة التملك. وفي معرض تفنيدنا حتى لهذه الغريزة كنا كثيراً ما نستشهد بالمفكر الفرنسي "جان جاك روسو" عندما يقول ما معناه (ان جميع المنازعات والحروب التي حدثت وسوف تحدث في العالم يعود سببها إلى أول شخص تجرأ وأحاط قطعة من الأرض بسياج وقال: هذه ملكي!).

كنا نميل الى تسمية الغرائز بالحوافز الفطرية لدى الإنسان يمكن تنميتها وتطويرها أو إضعافها وتجميدها حسب المؤثرات الخارجية التي تتوفر لها. كل ذلك لتسهيل فكرة تغيير الإنسان بتغيير المؤثرات الخارجية، تحقيقاً لحلم الثورة بالتغيير.

لكن، إذ تنجح الثورة في الوصول إلى السلطة وتستلم الحكم، تبدأ المرحلة التالية: (يبدأ الافتراق بين السلطة باعتبارها تجسيداً للحظة ثورية وبين الحالة الثورية) الافتراق بين الثورة كتنظيم وسلطة ومؤسسات وبين الثورة كحركة دائمة وتجدد دائم.

الثورة: "تكييف الخارج - المؤثرات الخارجية - لتستجيب للتطلعات الإنسانية الداخلية" ومنذ أن تنتصر الثورة - تهتم - بدل تعميق التكييف بما تنجزه، يصبح النظام ومنجزات النظام أهم من الثورة بحد ذاتها. (فالثورة تفشل في أنسنة الواقع ليتطابق والرغبات العميقة في النفس البشرية. الثورة تفشل، لان منطق العالم الواقعي وقوانينه هي التي تتغلب في الآخر).

الثورة، قد تحقق بعض التغييرات على مستوى الواقع الإجتماعي، لكنها - أي الثورة - تكون اعنف، قد تكون اكثر قمعاً على مستوى

العالم الشخصي الداخلي.

ويقول أدونيس (الثورة أعطتني في المحصلة بعض الحيوية، أعطتني بعض الحس بالتعرف على العالم الخارجي ومشكلات الخارج، عمقت رؤيتي للعالم، استفدت منها كثيراً. لكن مشكلة الثورة هي انها تفترق عن التنظيم حيث تصبح الكلمة الأخيرة هي للتنظيم. يصبح التنظيم مثل طبقة كثيفة من التلوث. وصلت بالخبرة الى ان الثورة أو ما سمي الثورة في المجتمع العربي لم تكن أكثر من هذه الطبقة الملوثة الكثيفة التي تغطي الماء الحي، الذي هو الثورة الحقيقية).

وبعد... فهل استنفذ الإنسان حلمه بالثورة؟ أم تبقى الثورة – الحلم تؤرق الإنسان؟

سارتر... ثم سارتر

زارني مرة جاري جان دمو الذي كانت عائلته تسكن لصق دارنا في (عرفه – كركوك) في العطلة الصيفية لإحدى السنوات الأولى من دراستي في جامعة بغداد قبل اكثر من أربعين عاماً، وكان طالباً في الإعدادية. جاء يطلب استعارة بعض الكتب التي كان يراني احملها أثناء خروجي ودخولي. عرفت انه يحب قراءة الرواية والقصص فزودته بمجموعة منها في الأدب الروسي: قصص لپوشكين، تورجنيف، تولستوي ودستوفيسكي.

عاد إليَّ بعد أيام مغتبطاً مسروراً بعد أن قرأها كلها، فزودته بمجموعة أخرى تتضمن: قصص ورواية الأم لمكسيم گورگي ومجموعة قصصية لشولوخوف وقصائد لمايكوفسكي، وأشرت إليه بقراءة (والفولاذ سقيناه – لاروستروفسكي) و(العقب الحديدية – لجاك لندن) و(أرض ثمارها من ذهب – لجورج امادو) تمهيداً لقراءات في الماركسية التي كنت متحمساً لها.

أبدى جان دمو إعجابه بها كلها بعد أن قرأها وعاد يطلب المزيد، خرج هذه المرة يحمل كتباً من نوع آخر: (تطور المجتمع – لسيغال) والاجزاء الأولى من كتاب (مباديء الديالكتيك) كنت استعرته من المكتبة العامة.

عندما أعاد جان دمو الكتب بعد أن طال غيابه نسبياً لم يحدثني عنها كما كنت أتوقع، وقبل ان أبادره بالسؤال اخذ يحدثني عن شاب آثوري إلتقاه مؤخراً اسمه سرگون پولص. تكلم عنه جان بإعجاب قائلاً أنه قاريء نهم وهو لايميل إلى قراءة الماركسية وأن اهتماماته أدبية بحتة كما أنه يقرأ بالإنكليزية أيضاً.

كان جان دمو يتحدث كثيراً عن سرگون پولص في لقاءاتنا التي قلّت بعد تعرفه على سرگون. وقد جمعنا إلى بعض، سرگون وأنا، عدة مرات.

كان سرگون پولص قارئاً نهماً بالفعل، يتحدث بحماس وتدفق.

حدثني سرگون مرة عن لقائه مع جبرا إبراهيم جبرا في مقر عمله في مجلة (العاملون في النفط) التي كانت تصدرها شركة النفط العراقية (I.P.C) وكان جبرا آنذاك منشغلاً في ترجمة (الصخب والعنف – لوليم فولكنر)، وقد قرأت النسخة التي أهداها بتوقيعه إلى سرگون پولص بعد صدورها مباشرة.

من سرگون پولص سمعت اسم جان پول سارتر لأول مرة، وأوصاني بقراءته.

استعرت (الوجود والعدم – لسارتر) من مؤيد الرواي الذي كان يسكن على مسافة دقائق، وكان قد استعاره من المكتبة العامة في كركوك.

من (الوجود والعدم – لسارتر) لم أخرج بالشيء الكثير بعد أن حاولت جهدي في قراءته أو قراءة فصول فيه. عدت إلى مؤيد الراوي أخبره بأني لقيت صعوبة في قراءته. مازحني مؤيد قائلاً: هل تعتقد أن الخلل في سارتر...؟ انت قاريء جيد في الماركسية يا أخي!. حملت الكلام محمل الجد فحاولت قراءة كتاب آخر لسارتر هو (الفينومينولوجية أو الفلسفة الظاهراتية)، فلم يكن نصيبي في فهمه افضل من الكتاب السابق. لم أفكر بقراءة أدب سارتر، فما دام الرجل فيلسوفاً لابد من قراءة فلسفته مباشرة، وربما لم اكن أعرف أن لسارتر كتباً أدبية تعبر عن فلسفته.

ظلت هذه المسألة تقلقني. فما جدوى قراءاتي كلها إن لم تسعفني في قراءة هذا (السارتر).

صدفة محض قادتني إلى مكتبة شقيق أحد أصدقائي لأجد فيها كتابين عن سارتر (سارتر والوجودية – ر.م. البيريس) و(سارتر بين الأدب والفلسفة – موريس كرانستون) استعرتهما فوراً.

قرأت الكتابين ففتحا في فكري آفاقاً جديدة وزوداني بالمفاتيح إلى عالم سارتر. واصلت قراءة سارتر بإعجاب يزداد كتاباً بعد آخر. قرأت له في فترة قصيرة نسبياً كل ما ترجم إلى العربية خاصة ما قدمه المترجم المعروف جورج طرابيشي. وابتداءً من (الجدار) و(الغثيان) مروراً بمتابعة تطور شخصيته المركزية (انطوان روكانتان) في ثلاثية (دروب الحرية) التي هي بالأصل رباعية لم يصلنا جزؤها الرابع، هذه الرباعية الرائعة التي لم يرتح لها سارتر واعتبرها فاشلة. وسلسلة (مواقف) التي جمعت في حوالي عشرة كتب هي مجموعة هائلة من الدراسات والمقالات كتبها سارتر في الأدب والفن والنقد والفكر والسياسة. كان قد نشر قسماً كبيراً منها في مجلة "الأزمنة الحديثة" التي كان يصدرها.

وللتعرف إلى فكر سارتر بشكل أدق كان لابد من قراءة (فرانسس جانسن) سكرتير سارتر في كتابه (سارتر بقلمه). دخولي إلى عالم سارتر وتعرفي إلى منهجه ورؤيته عن الإنسان والكون والحياة كان اعظم ثاني منهج معرفي اكتشفه بعد الماركسية.

تعلمت من سارتر كيف يكون الإنسان بذاته وكيف يكون لذاته. وان الإنسان هو ما هو، وهو ليس ما هو. انه ما ينقصه. منه تعلمت: بين الكائنات الإنسان ليس كائناً. بل ما يكون. منه تعلمت معنى الترابط العضوي الجدلي بين الحرية والإلتزام. معنى أن يكون الإنسان حراً، بل محكوماً عليه بالحرية، وأن يكون ملتزماً بذات الوقت.

منه تعلمت معنى الحرية التي لابد أن تفضي إلى الإلتزام. والإلتزام الذي يعني ممارسة حرية الاختيار.

من سارتر تعلمت كيف يصبح حتى الصمت موقفاً وإلتزاماً. الإلتزام بقضايا الإنسان مهما كان وأينما كان: ألم يكن سارتر أول أوروبي يكتشف الشاعر السنغالي (ليوبولد سيدارسنغور) الذي أصبح رئيس

أول جمهورية للسنغال، ويحلل ظاهرة الزنجية في شعره؟ ألم يكن سارتر أول من اكتشف الزنجي (د. فرانز فانون) وقيم منطلقاته في تحليل قوى الثورة في بلدان العالم الثالث من وجهة نظر ماركسية مرنة ومتجددة وغير تقليدية؟

ألم يحرص على قراءة كتابه المهم (معذبو الأرض) الذي كتب له المقدمة؟

واكثر من هذا وذاك كله فقد علمني سارتر كيف أفكر بشكل مستقل بعيداً عن كل الفلسفات والأيديولوجيات وعن كل فكر مسبق.

استمر فرحي وإعجابي بسارتر سنوات طويلة لم أتخلَّ فيها لحظة واحدة عن قناعاتي الماركسية، أو هكذا كنت اعتقد. فلم أجد في فكر سارتر وفلسفته ما يتعارض مع جوهر الماركسية، ليس اللينينية، إلا في موضوعة الحريات الفردية والتي تؤكد عليها الماركسية، في تقديري، خاصة في مراحلها العليا أو النهائية... فسارتر وعبر محاججة جدلية في إحدى كتبه يتوصل إلى: أن الماركسية هي فلسفة القرن العشرين.

اهتزت قناعتي ببعض طروحات سارتر الفكرية مرة، لابد من الإقرار بذلك، عندما قرأت جورج لوكاتش في كتابه الخطير (ماركسية أم وجودية) يتعرض فيه إلى فلسفة سارتر وميرلو بونتي وسيمون دي بوفوار. حيث يطلق على تلك الفلسفة (فلسفة الطريق الثالث) أي بين الاشتراكية والرأسمالية. وبقدر ما تزعزعت قناعاتي ببعض أفكار سارتر حول الماركسية والاشتراكية فقد أدركت أيضاً من ناحية أخرى، الثغرات المهمة في ثقافتي الماركسية.

ولكي احسم الأمر فقد أعدت قراءة (لا افعله إلا نادراً) بعض الكتب الماركسية لماركس وانجلز وبليخانوف.

واليوم بعد مضي كل هذه السنوات على انهيار التجربة الاشتراكية السوفياتية، ومرور اكثر منها على وفاة سارتر، هل أكون قد حسمت

الأمر؟

سارتر لم يهادن أحداً. فإذا كان يعترض على المواقف التي كان يراها خاطئة في سياسة الاتحاد السوفيتي (هاجم ستالين بشكل عام، واعترض على الموقف السوفيتي من احداث المجر/١٩٥٦ واحداث تشيكوسلوفاكيا/١٩٦٩ أيام (دوبتشيك) فإنه كان يرفض النظام الرأسمالي. كونه مبنياً على الاستغلال لأنه يرتكز على تراكم فائض القيمة الرأسمالي. ولم يتهاون يوماً، ولا لحظة واحدة، عن فضح ديماغوجية الديمقراطيات الغربية.

وتبقى وجهة نظره عن قدرة قوانين الديالكتيك في تفسير واستشراف حركة الطبيعة ونسبية تلك القدرة في تفسير واستشراف حركة المجتمع البشري، حيث يدخل عنصر الإرادة البشرية عاملاً مؤثراً في مسار الحركة، صحيحة في حواره الطويل عن هذه المسألة الديالكتيكية الخطيرة، مع روجيه گارودي عندما كان هذا الأخير يطرح وجهة النظر الماركسية الرسمية عبر تمثيله للحزب الشيوعي الفرنسي.

وتبقى أخيراً مناداته بالاشتراكية كأفضل صيغة لتنظيم بشري يحقق مجتمع الكفاية والعدل على أن تسوده الديمقراطية وتصان فيه الحريات الفردية، صحيحة، كما أثبتتها التجارب الإنسانية، هي الأخرى.

الجوهر هو الذي يرشح

«كل شيء سيصبح جسداً واحداً
سيسبح الإنسان السعيد في الدم السماوي
آه لو بمقدور المحيط أن يصبح احمر اللون
وتتحول الصخرة إلى لحم معطر»
أ.فيشر

وسط هذا اللايقين والمتاهة التي تلف وجوه الناس والكآبة التي تطغي عليها، قابع ابحث عن المعنى والوضوح وانتظره. ارقب الناس والأشياء والعالم، ومثل بطل هنري باربوس في (الجحيم) والذي كان يرقب العالم من ثقب الباب، هل تصبح الأشياء مألوفة لدي لشدة غرابتها؟!

فما الذي حدث؟ وما الذي يحدث؟

إن هذا الذهول الذي يشل القدرة على التفكير، يختلف بما لايقارن عن ذلك الاندهاش والذهول الممتع الذي أحسسته عندما حاولت قراءة سارتر. ثم فلسفته في (الوجود والعدم) قبل اربعين عاماً مضت. أو حينما قرأت اتجاهات الدادائية والسريالية. ثم كتابات صاموئيل بيكيت ويوجين يونسكو وارثر ادامـوف في العبث واللامعقول أو في قراءة التوسير وبنيوية رولان بارت أو عند اكتشافي للواقعية السحرية في أدب أمريكا اللاتينية وبالأخص ماركيز في رائعته (مائة عام من العزلة) أو عند الاطلاع على أدب الإيطالي ايتالو كالفينو (الساحر) خاصة في (مدن لامرئية) الأكثر حداثة وغرابة وإثارة للصدمة من (ألن روب جرييه) رائد اتجاه اللارواية أو ضد الرواية حتى.

ثمة شيء كان يفلت مني كل مرة... ثمة إيقاع كان يتسرب ويضيع. وأتلقى الصفعة وهي دائماً تتخذ شكل الذي يتلقاها.

نعم انه الإيقاع (كالشهيق والزفير ونبضات القلب والشعر واللحن والأغنية والمد والجزر وتعاقب الليل والنهار). انه الإيقاع الذي ينظم الجهد والحركة ويربط الفرد بالجماعة ويصل الشخصي بالكوني ويرمم وحدة الإنسان الضائعة وكل انقطاع في الإيقاع ممجوج لأنه يحدث خللاً ويخلق بلبلة.

والإيقاع بوصفه تكراراً لعنصر ثابت ضمن متغيرات عدة. بوصفه تناسباً وتناظراً يوضح الرؤية ويوحي بأبعاد الحركة والفعل اللاحق، ويمهد لآفاق المستقبل بالارتكاز على معرفة العنصر الثابت المتكرر وفهم العناصر المتغيرة.

بالأمس كنا شعراء... ليس في النظم بل في النظر إلى الحياة كنا شعراء لأننا كنا نعرف العنصر الثابت المتكرر ونفهم العناصر المتغيرة.

– كنا شعراء لأننا كنا قد اكتشفنا أن العالم لم يعد منقسماً إلى أقوياء وضعفاء، بعد أن اكتشفنا ضعف الأقوياء وقوة الضعفاء. كنا أقوياء لأننا كنا نعرف الإيقاع ونفهم قوة الأشياء...

– كتب ماركس (جميع الفلاسفة الذين أتوا قبلي فسروا العالم إنما المهم هو تغييره...) ومن اجل تغيير العالم لابد من فهمه أولاً. وهنا مربط الفرس وبيت القصيد... فهم العالم إذن هو موضوع الرهان... فلكي لانحاول تغيير العالم... لكي لايتحول العالم إلى رحم كبير يمنح الدفء والظل والأمان للبشر... لابد أن يكون عصياً على الفهم... أن يضيع إيقاعه... أن تختل مواقع العناصر الثابتة والمتغيرة وتتداخل وتتشابك داخل إيقاع العالم في هذا العصر، فينقطع... وتغلق دائرة الفهم ويقفل درب التغير.

لازلنا إذن في افضل الأحوال في الجانب البدائي المتخلف فاقدين القدرة على الفهم ناهيك عن القدرة على الفعل المؤثر... فحضارة هذا العصر لاتعني نقيض البداوة فحسب بل هي اكثر من ذلك بكثير...

وكما كنت استعيد الإيقاع في كل مرة فأتخلى عن العقلية التقليدية في قراءة النثر السردي ذي الإيقاع البطيء الكسول، تولستوي، دستيوفسكي، ثاكري، ديكنز، ستندال أو فلوبير حتى، وأتواصل مع سارتر ورولان بارت وماركيز وكالفينو وغيرهم... لابد من اكتشاف إيقاع العالم واستعادته مجدداً.

فهل يستدعي اكتشاف أو إعادة اكتشاف إيقاع العالم ظهور ماركوبولو جديد أو كولومبس العصر ليدلنا على الإيقاع الجديد ويقودنا إلى منابع تألق الحلم البشري مرة أخرى؟

– كتبت مرة: أني انتظر الموت وأخافه أحياناً. أن يفد هكذا عارضاً كغيمة تمكث وهلة ثم تتلاشى وتختفي إلى الأبد.

إنني اضحك من ذلك الآن. لست أخاف الموت. لقد تحررت (لست أخشى شيئاً ولا اطمح في شيء... إني حر).

كنت غراً مملوءً بالأمنيات والأوهام. كنت أريد أن اسيح في العالم وازرع فيه راياتي. أتعلم منه وفيه الحكمة... لكن بعد سنوات طوال ثقال أدركت: أن العالم هو نفسه أينما كنت وان الحياة تمنحك نفسها اينما كنت. وأنى شئت... وان الحكمة قرينة العذاب.

ولا ازعم هنا أن الفرح لايولد الحكمة. إلا أنّ حكمة الفرح هي الأكثر هشاشة واقل ثباتاً... بينما حكمة العذاب هي الأكثر أصالة وصلابة. وإذ أقول هذا فإني لا أريد أن أوحي بان معنى الحكمة لدي هو نفس المعنى التقليدي. فلست من هواة الحكمة بذلك المعنى... فقد تعني الحكمة اكتشاف الجمال والروعة في الحياة. وقد تعني الحياة... وقد لا اعرف ماذا تعني... وهذا أهم.

وإذا كانت الحكمة تعني تلمس نبض الجمال في الحياة... فماذا يعني ذلك؟ وما الذي يرشح من الحياة يا ترى بعد رحلة العذاب والفرح؟

انه الجوهر ذلك الذي يرشح... إنها بهجة عشق الأشياء الأولى... فرح

العشق الأول للأشياء... انه متعة التواصل مع بتولية العالم:

أنْ ترقب الندى ينزلق على وريقات العشب الفتية الطرية وأنت مستلق على سفح مغطى بالنرجس والبنفسج... أن تشم رائحة الحياة وهي تدب في الحشرات والهوام في غبش الفجر...

أن تبدأ وجبة طعام طيبة بحساء لذيذ حار يتصاعد منه البخار... أن تدفيء عظامك المقرورة بوهج الشمس.

أن تتفيأ في ظل شجرة حنون وأنت تفترش التراب. أن تضمك إلى جماعة من الأصحاب حلقة نقاش هادىء صميم... أنْ تنساب إلى روحك الظامئة أغنية وديعة... أن تتعبك معضلة ما حيناً ومن ثم فجأة تلتقطها وقد تحولت إلى حكمة على فم إنسان ساذج بسيط...

أن تحس أخيراً: انك ضمن معجزة الكون تنتمي إلى الحجر والشجر والأطيار...

أن تتوحد مع الكون...

رحلة إلى الينابيع

هل الحياة تستحق أن تعاش أم لا؟

إن الإجابة على هذا السؤال يشكل أساس الفلسفة كلها، أما دون ذلك فيأتي في المرتبة التالية، هذا ما يقوله البير كامو في بحثه الفلسفي المطول (الإنسان المتمرد).

ولست هنا بصدد الإجابة على هذا السؤال الآن. إلا انني أقول: في قلب المتاهات ورغم كل العبث واللاجدوى في الحياة تبرز دوماً الحاجة إلى الفعل... وإذا كان لابد من الفعل، فلابد إذن من كلمة أقولها علها تجعل الآخرين يفهمون المحاربين الذين وإن علقوا سيوفهم حتى صدئت إلا انهم ظلوا مكافحين أبداً على تخوم المستقبل اللانهائية...

إذا كانت الكتابة تعني اغتصاب العالم بالكلمات، فقد اغتصبت العالم بطريقتي الخاصة: بالكلمة رغم الشحة الشديدة في كتاباتي. وبالفعل... وأحياناً كثيرة بالصمت.

قناعات كثيرة تساقطت وأخرى تكونت وثالثة ترسخت. إلا أنّ الأسئلة الأكثر إلحاحاً بقيت دون إجابات: فما الذي نفعله فوق هذه الأرض التي يحكمها الألم؟

هذا هو السؤال الذي يترتب بالضرورة على السؤال الوجودي الهائل لشكسبير (تكون أو لاتكون) والذي يخرج سارتر، اثر مناقشته بإسهاب، بالقول: "بين الكائنات الإنسان ليس كائناً! بل ما يكون... الإنسان هو ما هو وهو ليس ما هو... انه ما ينقصه. انه... مشروع".

أن تكون بحق إذن، هو أن تعيش قلق التعارض والمفارقة بين أن تنظر إلى العالم وكأنك تعرف كل شيء بل وأكثر مما ينبغي... وبين أن ترى العالم بعفوية وطفولة واندهاش وكأنك تراه لأول مرة. هنا في اتون هذا القلق المقدس: بين الوعي والبراءة بين أن تعرف وان لاتعرف... يولد

الشعر... ويولد الفن... ويكون الإنسان...

وكانسان... فقد عرفت الفرح كما عرفت الحزن. اخترت أن احترم الحزن اكثر لأنه إذ يحطم النفوس الصغيرة إن زارها، فانه يطهر النفوس الكبيرة إذا حل فيها... وإذا وجدت نفسي يوماً أخشاه فسأعلم بأنني لم اكبر بعد ولست أهلاً لاستضافته.

سنوات طويلة انسلخت من عمري تعطل فيها الفعل الحقيقي إلا من القراءة... وبقي سحر الكتاب يلازمني سنوات أطول... فقد كانت القراءة، ربما بديلاً للفعل الذي كنت احلم به واتوق له واعتبر نفسي مؤهلاً لادائه.

وابتداء فقد كان الفعل هو التمرد... والفعل كان الثورة في المرحلة التالية.

وبالتمرد اعني الرفض المطلق. والثورة تمرد يتأسس على فهم حركة التاريخ في إطار الزمان والمكان ويستدعي الانتماء إليها...

ومنذ أن كان الفن، وهو لصيق الإنسان، فقد كان فناً متمرداً. منذ أن سرق بروميثوس النار من جبل الآلهة ليهديها إلى الإنسان، منذ أن تحدى گلگامش الموت، وظل سيزيف يحمل صخرته إلى القمة والى الابد، وصارع يوليسس قوى الفناء رافضاً الخلود في خانة الآلهة، ورفض أوديب الاستسلام لقدره، وقاد سانتياگو شيخ همنگواي الهيكل الخاوي لسمكته العملاقة إلى الشاطيء...

وفي الجانب الآخر أو المرحلة الأخرى فقد تلاشى الحلم الرومانسي بالثورة... وقبلت بالثورة دون رومانسية. هكذا بوجهها العاري المكشوف الممتليء بالأورام والبثور، ولكن الأكثر واقعية والأكثر قدرة على التحقق والثبات على الأرض. إلا أنّها سرعان ما تهاوت هي الأخرى.

هكذا أصبحت أمارس طقساً وثنياً سافراً مع الحياة وجهاً لوجه دون وسيط...

وعبر مسالك رحلتي ودروبها اللامجدية إلى الينابيع كانت حصيلتي

من تجـربة الحـيـاة وخـاصـة في السنوات الأخـيـرة، سنوات الهـزائم والخيـبات والانكسـارات وعلى الصـعيدين العام والخاص، في الخارج والداخل، في الواقع الموضوعي وعلى المستوى الشخصي والذاتي على حد سواء... أقول كانت حصيلتي أغزر واكثر من كل قراءتي...

حـاولت الاقـتـراب من الحرية... "ذلك الهـاجس الناري الذي تظل كل التعريفات بعيدة عنه بالرغم من لهاثها وجنونها لان تربض في إيقاعه الإنساني الخالد".

تعلمت أنّ الحرية هي الحياة... وليست الحرية السياسية إلا مظهرها الأكـثـر ابتـذالاً... رغم أنّ الحـيـاة عبء وقـيـد وغربة وعبث... تعلمت أنّ التخلص من سطوة الأشياء هو الخطوة الأولى نحو الحرية... التحرر من سطوة الكتاب وليس الاستغناء عنه... إلا أنّ الاستغناء يبقى هو الأساس الحقيقي للحرية...

الاستغناء عن الشهرة والمجد لأنها قيد...

الاستغناء عن الملكية لأنها مفسدة...

عن الآخر...

وكلما تزداد استغناءً كلما تزداد إنسانية...

ولا اقصد بالاستغناء الزهد وإفقار الحياة والامتناع عنها، إنما اعني رفض كل البـهرجة والبذخ والرتوش التي تبعدك عن الاحتكاك المباشر معها والاقتراب من نبضها السري الدافق الحنون.

تعلمت أنّ الحياة إذ تمنحك شيئاً فإنها تتقاضى ثمنه بشكل أو بآخر، وأنها إذ تمنح بيد فإنها تسلب باليد الأخرى...

تعلمت أنّ الإنسـان إن لم ير مـعـجـزة الكون الفـائقة الدقة والنظام والتوازن والتعقيد متمثلة في ورقة خضراء نابتة على غصن شجرة، أو في تحليقة فراشة صغيرة، أو دبيب نملة على الأرض، فانه غير قادر على رؤية أي شيء...

الفهرست

ليست مقدمات
(١) 5
(٢) 9
(٣) 13
رفقة 17
عالم بلا لائحة حقوق الإنسان 19
اصمتوا الآن... 21
من رسالة إلى صديق 25
التاريخ إلى اين...؟ 31
أسئلة تبحث عن أسئلة 37
روح العصر في القصة الكردية الحديثة 43
الحرية والإلتزام 49
رسالة من بعيد 55
الثورة - الحلم 59
سارتر... ثم سارتر 65
الجوهر هو الذي يرشح 71
رحلة إلى الينابيع 75

معدّ للطبع (للمؤلف):

١) في النقد – الكتاب الأول (مقالات في النقد).
٢) تحولات – الكتاب الثاني.